الهيئة العامة لقصور الثقافة

رواية

حمار بين الأغانى

وجدى الأهدل

سلسلة آفاق عربية
133

حمار بين الأغانى

رواية

وجدى الأهدل

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن

مدير إدارة النشر
علي عفيفى

الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• حمار بين الأغانى
• وجدى الأهدل
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2010م
13,5 x 19,5 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٤٩٦٣/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولى: 978-977-704-424-0
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

133

سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
إبراهيم أصلان

مدير التحرير
لبنى الطماوى

حمار بين الأغانى

إلى الروائي الألماني العظيم
جونتر جراس:
شكراً لك أيها العزيز لأنك أنقذتني من ويلات المنفى
وأعدتني إلى بلدي حراً طليقاً.

بدا القمر الذهبي البازغ لتوه وكأن الضباع قد نهشت أعلاه، فسال نوره المراق على الأرض صابغاً جدران المدينة النائمة بلون أصفر باهت، لا تلحظه العيون، ولا تلمسه الحجارة، ووحدها النجوم ذات الأهداب الطويلة استطاعت احتضان هذا الجمال الشحيح الوجود وشهقت من السعادة.

كان جبل «قربوس سام بن نوح» المتباهي بمنكبيه يرخي ظل قامته ـ المشدودة إلى الوراء صلفاً ـ على حارة «الحلقوم» وكأنما يغار عليها من إطلالة الطارئ الوسيم الفتان، وقبلاته المختلسة أثناء عبوره تحت أمواج السماء الخفية.

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ما نأمة تسمع باستثناء جلبة

الكلاب التي كانت تتسافد بفظاظة مزعجة، وصوت نباحها الجنوني يشق طريقه بيسر إلى مهاجع سكان حارة (الحلقوم) المطبقين أجفانهم بشدة لكي لا يفزع الكرى من الضجة فيتركهم مسهدين.

أزاحت (ثائرة) الستائر الحمراء المخملية، وفتحت ضلفتي النافذة على مصراعيها، فهب نسيم حلو أنعش رئتيها، وحرك شيئاً يسيراً الشلحة السوداء الشفافة التي تصل بالكاد إلى ركبتيها. ولو أن أحداً رآها تطل من النافذة بهذه الصورة لظنها على الفور امرأة منحرفة تبحث عن قضاء وطرها، ولطافت هذه السمعة السيئة من بيت إلى بيت، فلا شيء أحلى على قلوب أهل الحارة من لوك شرف النساء.

تململ زوجها المستلقي على بطنه فوق سريرهما المشترك مصدراً شخرة عالية ثم سحب الشرشف الأخضر على رأسه، واستسلم لنوم عميق يدل عليه صفيره الخافت المنتظم.

كانت (ثائرة) تراقب زوجها وقد جمدها الرعب، فلو أنه رآها واقفة بكامل قامتها عند النافذة وليس عليها سوى تلك الهلاهيل التي تكشف أكثر مما تستر لجن جنونه، ولسارع على الفور بأخذ خيزرانته المعلقة على الجدار ليكيل لها الضربات الوحشية دون رحمة حتى تسيل دماؤها وتغيب عن الوعي.. إذ كان لا يسمح لها أن تظهر من النافذة أصلاً، وفي أحايين نادرة حين يكون رائق المزاج كان يسمح لها بالوقوف على مقربة من النافذة وهي ملثمة الوجه لترى الشارع من وراء الزجاج.

كان جسدها حاراً فأخذ يبرد بالتدريج، فأحست حينئذٍ بالنعاس يدب في أوصالها من جديد. أغلقت ضلفتي النافذة، وأرجعت

الستارة الثقيلة، ثم سارت بعينين شبه مغمضتين نحو السرير.

قشعريرة باردة جداً دهمت عمودها الفقري حين لاحظت بين النوم واليقظة كتلة سوداء ممددة على السرير بجوار زوجها المغطى حتى قمة رأسه.

راحت تبحث بتشنج عن مفتاح النور، وكانت يدها المرتعشة تخبط على الجدار بارتباك شديد، وكادت روحها تفارق مستقرها المكين لولا أنها عثرت أخيراً على المفتاح فعم غرفة النوم النور الأبيض.

رأت رجلا ملثماً بسماطة حمراء، يرتدي ثوباً أبيض متمدداً على الحيز الخاص بها من السرير، يشد على خصره حزاماً عريضاً تتوسطه جنبية مغمدة في عسيب معقوف مزين بشرائط خضراء، وعيناه تحدقان فيها بجحوظ منفر.

تسمّرت مشدوهة، وارتخى فكها السفلي ملتصقاً بعنقها الأسمر الطويل. وضع الرجل الملثم يمناه على مقبض الجنبية العاجي الثمين، وسحب النصل بهدوء متجنباً إحداث أدنى صوت.

فزعت (ثائرة) حين رأت المعدن الصقيل يلمع متعطشاً للدم، فأطلقت لصرخاتها العنان حتى ظنت أن كل سكان حارة (الحلقوم) قد هبوا من مراقدهم مشوشين.

انتصب الرجل الملثم واقفاً مشهراً جنبيته، واقترب منها غير مكترث بصرخاتها المدوية. فتحت باب غرفة النوم وولّت هاربة، ولكن استعجالها في هبوط الدرج إلى الطبقة الأرضية أودى بها إلى التعثر،

فانقلبت على رأسها عدة مرات مسببة ضجة عالية، واستقرت عند بسطة الدرج كشوال البطاطس.

نزل الرجل الملثم الدرج بحرص وأناة، وعيناه الجاحظتان مثبتتان على جسدها البض اللدن. رأته يتعملق أضعاف حجمه الحقيقي بفعل الإنارة الخافتة، تحاملت على نفسها رغم ما تحسه من آلام فظيعة في سائر أنحاء جسدها، وجرت وهي تعرج على قدمها اليسرى نحو باب الفيلا الخشبي الضخم ففتحته وخرجت إلى الحديقة، وبفارق بسيط لا يجاوز بضع ثوان سمعت مفاصل الباب تصدر صريراً ممطوطاً، فاقشعر بدنها لشدة قرب الشبح المجهول منها.

وصلت إلى الباب الخارجي المصنوع من الحديد المصفح، واغرورقت عيناها بالدمع حين وجدته مقفلاً ولا يعلم إلا الله أين يوجد مفتاحه في تلك الساعة العصيبة.

سمعت مطاردها يسير الهوينى - إذ لم يكن على عجلة من أمره - وأوراق الأشجار المتناثرة على الممر تقضقض تحت وقع خطواته الواثقة.

لم تنظر إليه كي لا يغشى عليها من الخوف، وسارعت بتسلق السور، ثم رمت نفسها إلى الشارع الذي كان خالياً والكلاب قد رحلت منه، وبدا أنه لا أحد استمع إلى تأوهاتها ونشيجها الباكي المقهور.

انفتح الباب الخارجي بسهولة، ورأت الرجل الملثم يطلع منه وفي عينيه بريق الظفر. كانت تتأوه مستلقية على ظهرها وهي عاجزة عن النهوض من فداحة السقطة.

وقف فوقها تماماً مباعداً ما بين رجليه، والنصل المعقوف ينبض في يده شوقاً للالتحام. أنّت (ثائرة) أنيناً عميقاً متصلاً، وزحفت على جنبها كازة على أسنانها من شدة الألم المتصاعد من عمودها الفقري، وركزت بصرها المغبش من الدموع على بلاطات الرصيف لتوهم نفسها بأنها تقطع مسافات هائلة للفرار من عدوها الجاثم فوقها تقريباً.

تركها الرجل الملثم تزحف على الأرض كحشرة داستها الأرجل، وحين ملّ من هذه اللعبة واكتفى بهذا المقدار من الإذلال أطبق بيده اليسرى على فمها، وثبّت رأسها بقوة على البلاط وفي لمح البصر حز رقبتها من الوريد إلى الوريد فتدفق الدم أحمر ضارباً إلى السواد، وتكونت بحيرة من سائل لزج فاحت رائحته المغثية بطول الشارع وعرضه.

غرفة النوم السابحة في لجة النور الأحمر الخافت الضارب إلى السواد أمست مصدر إزعاج للكهل الخمسيني (علي جبران) النائب البرلماني المنتخب عن دائرة الحلقوم، فهو منذ عدة أشهر لا يعرف طعماً للراحة في فراشه.

رفع رأسه المتصدع بتثاقل واتكأ على مرفقه مستمعاً إلى الدمدمات المضطربة الدافقة من فم زوجته الراقدة على جنبها في وضع جنيني والعرق يسح من جبينها وكأنها تقطّع أحجاراً، وملامح وجهها عكرة منقبضة توحي بما تعانيه من مخاوف غير مرئية له.
راقبها بضع دقائق منتظراً أن تفرغ من حلمها وتسكن، لكن الأمر طال، ورأى مقدار اتساع بقعة البلل على وسادتها من العرق والدمع فأشفق عليها أخيراً وتفضل بهز كتفها.

استفاقت (ثائرة) مذعورة، وانفتحت شفتاها بصرخة قصيرة، قعدت وصدرها يعلو ويهبط من فرط الانفعال، وجالت بعينيها المتورمتين في جنبات الغرفة.

قال علي جبران متأففاً من عذابها وغير قادر على إخفاء ضيقه:

- أف.. ما هو؟ رجع لك ذيك الرازم نفسه؟

نظرت (ثائرة) إلى زوجها فعاودتها الطمأنينة، ونسيت أن ترد على سؤاله والتفتت إلى الجهة الأخرى، وسكبت في كأس نحاسي صغير ماءً من قنينة مثلجة اعتادت أن تضعها بجوار رأسها قبل أن تخلد للنوم، وبلعت شظايا الثلج بنهم ويدها ترتعش رغماً عن إرادتها فتبلل صدرها وثوبها الخفيف.

قال علي جبران وإنسانا عينيه يتقاربان يوشك أن يقفز الواحد منهما فوق الآخر تأثراً من تجاهلها له:

- أنا مش قلت لك تقري آية الكرسي قبل ما ترقدي؟

وضعت (ثائرة) الكأس على الدولاب ثم أسندت ظهرها إلى طرف السرير قائلة:

- قد قرينا آية الكرسي وما صح شي.

قالت (ثائرة) وهي ترفع إلى أنفها عقد الفل المخبأ تحت وسادتها وتشم عبيره:

- قلت لك يا علي ما بش جن ولا عفاريت.. اعقل.

رد علي جبران وقد استوى قاعداً وروح المناكفة تدب فيه:

- هذا هو الذي استفدناه من شهادة الجامعة ومن دراسة التاريخ.. أمانة الله ما عاد بينك وبين النصارى إلا ذراع.

قالت (ثائرة) وحبات الفل الذابلة التي حال لونها من البياض الناصع إلى البني المتخشب تتفتت بين أصابعها:

- كذاب، من قال لك إنه باقي ذراع.. الصدق ما عاد باقي إلا شبر!

أفلتت صرخة استنكار من علي جبران:

- يعوه.

أفتر ثغر (ثائرة) عن ابتسامة مرحة قائلة في نفسها: «غلبته».
انقلب علي جبران على جنبه، وأعطاها ظهره حنقاً، وشرع في إجبار النوم على ملازمته.

حاولت (ثائرة) المقاومة، إلا أن ذاكرتها راحت تستعيد تفاصيل الكابوس حتى لحظة الذبح الرهيبة، فارتعد بدنها وحرّكت رأسها يمنة ويسرة وكأنها تتأكد من استقراره فوق رقبتها.

صحا عمر الخادم الصغير البالغ من العمر عشرة أعوام على أذان الفجر، وقعد متضايقاً من المؤذن الذي كان يصرخ في الميكروفون بملء حنجرته، وحدّث نفسه أن هذا المؤذن ولا ريب قد اشتغل (مصيحاً) في فرزة الباصات.

خرج من حجرته الضيقة الدافئة الواقعة في القبو مغمض العينين، وصعد بخطوات مترنحة صوب الطبقة الأرضية، ولم يشعر بنفسه إلا حين اصطدم جبينه بباب الحمام المغلق.

قرفص طويلاً متأملاً قطرات بوله، وأربكه وجود نوىً سوداء داخل القطرات الصفراء، فتلقف بعضاً منها بسبابته وفركها بالإبهام فلم يعثر على شيء. أراح ذقنه المثلثة بين راحتيه وتساءل محتاراً كيف

يمكن أن يرى سواداً في كل قطرة بول ولا يقدر على الإمساك به؟ ثم هداه تفكيره إلى أن يبعث برسالة إلى مفتي الجمهورية ـ الذي يستمع لفتاويه من خلال برنامج إذاعي يومي ـ ليطلب منه فتوى حول كيفية التخلص من النقاط السوداء في بوله، وهل يؤثر وجودها على صحة الاستنجاء؟

توضأ بماء دافئ من السخان، وصلى ركعتي الفجر بخشوع أفسدته عليه قطته السوداء المتمسحة بقدميه والتي كانت تموء بوهن واستعطاف معربة عن جوعها، فلعنها عمر في سره لأنها أنسته بقية آيات سورة التين والزيتون، ووضع يده على ذقنه مفكراً أن في مصارين قطته ديداناً لا يحصي عديدها إلا الله، لأنها في الواقع تأكل أكثر منه، ورغم ذلك تجوع قبله.

بعدما سلّم طوى سجادته وألقاها فوق سطح دولابه الحديدي القصير المتهالك، وحمل قطته بين ذراعيه متجهاً صوب المطبخ قائلاً لها بنبرة حازمة:

ـ قدك جاوعة يا كلبه؟ أين سار السمك عشاكي حق أمس؟

عاتبته القطة السوداء بمواء ممطوط وكأنها تقول له:

ـ سمك مه؟ ما هو إلا قليل.

تمتم عمر بصوت خافت محاذراً أن تسمعه القطة:

ـ هه.. دمه معرصه!

شرب حليباً مبرداً حتى ارتوى، ثم سكب قليلاً منه في الصحن النحاسي الخاص بالقطة.

شعشع ضوء الصباح من القمريات الملونة، فسارع بفتح نوافذ الطبقة الأرضية كلها لتجديد الهواء الراكد، ثم صعد إلى السطح متحملاً عضات الهواء البارد ليمتع ناظريه بمشهد بزوغ الشمس من وراء آكام جبل «قربوس سام بن نوح».

أدخله الشفق البرتقالي العذب في بحر متوهم من السعادة، وطفق يستظهر أسماء البنات اللاتي يحبهن، وكان عددهن بالأمس تسعاً، لكنه اليوم نسي واحدة منهن، فعصر ذاكرته مصلياً على النبي مراراً لعل وعسى يتذكر محبوبته التاسعة، ولكن هذه المتمردة استعصت على الحضور.

وكأي شتيمة بشعة، سيطرت على عقله كلمات مدرس الدين الذي وجه له طعنة نجلاء عندما ذكر في حصة الفقه أن الشريعة الإسلامية لا تبيح للرجل أن يتزوج بأكثر من أربع نساء. لقد غمّه هذا الخبر البطّال، وواسى نفسه بأنه لا يزال صغير السن وأمامه فسحة من الوقت حتى يكبر، ووقتذاك لربما يكون الفقهاء قد تمكنوا من توسعة الشريعة بحيث يتاح له الزواج من حبيباته التسع دفعة واحدة.

انتبه عمر من شروده الوردي حين لمح الطباخة (سعدية) تتهادى بجثتها الهائلة في أول الشارع، فنزل متزحلقاً على درابزين الدرج والفرح يشع من محياه، فقد تذكر أن حبيبته التاسعة التي أوشكت على الإفلات من عصمته لم تكن سوى (نورا) أصغر بنات الطباخة سعدية وآخر عنقود ذريتها الوفيرة.

وجد قطته السوداء قد سبقته إلى باب الفيلا الخارجي والتي حالما

نادتها الطباخة باسمها (عجايب القدرة) اندفعت تموء بلهفة وخربشت الباب بمخالبها الحادة فتقشرت خطوط رقيقة من طلاء الباب البني.

فتح لها الباب ومد يده مصافحاً، احتوتها في كفها وضغطتها بشدة محسوبة لتختبر قوة تحمله، فلما رأته يكز على أسنانه كي لا يتأوه قالت له متحدية:

- إذا قدرت تضحك فأنا عاد أعرف إن قدك رجّال وتستحق أزوجك بنتي نورا.

حاول عمر أن يتحامل على نفسه ويضحك، ولكنه ما أن فتح فمه حتى انبعثت منه آهة ألم مخزية. ضحكت الطباخة سعدية بانتشاء وتركت كفه المحمرة ودلفت إلى الداخل:

- عادك صغير يا عمر، ما قدك حق زواجه.

مشى عمر خلفها والدموع تضبّب عينيه، ومشاعره تضطرم بالحنق، معتقداً أن كرامته قد أهينت ومرغت بالتراب، فأقسم على نفسه أن يأكل ثلاثة أضعاف كمية الطعام التي اعتاد تناولها مقلداً قطته السوداء (عجايب القدرة) وأن ينزوي في حجرته بالقبو واضعاً رأسه بين قدميه ليتمكن من هضم الطعام في أسرع وقت ممكن، ظاناً أنه بهذا النظام الغذائي المكثف سيتوصل في غضون أسابيع أن يغدو رجلاً.

اكتسحت رائحة الكبد المقلية بالبصل والبهارات والفلفل كل الحواجز حتى وصلت إلى غرفة نوم علي جبران الذي قرصته معدته

الخاوية فاستيقظ نشيطاً وشهيته مفتوحة على الآخر.
حلق شاربه وذقنه بآلة حلاقة كهربائية، وظل لفترة يمرر أنامله على خديه المثقلين شحماً ليتأكد من نعومتهما.

لاحظ نفسه في المرآة وشعر بالحنين إلى تربية شاربيه، وأسف لانصياعه لرغبات زوجته الشابة التي لم تكن تسمح له بتقبيلها إلا إذا كان وجهه منعماً.

في لحظة سخط عابرة سخر من نفسه مخاطباً صورته في المرآة: «هذا ما هو؟ نقيل يسلح؟ شلوك والوجه معك!».

فرش عمر السفرة في حجرة الطعام وقام برحلات مكوكية إلى المطبخ لجلب أطباق الإفطار والقهوة، ثم انشغل بتقشير البيض المسلوق.

دخل علي جبران إلى حجرة الطعام، وجلس عند رأس السفرة متربعاً، وليس على بدنه سوى فوطة بنية مخططة بالأسود وفانلة بيضاء داخلية دون أكمام.

سكب عمر كوباً مترعاً بالقهوة اليمنية ـ القشر ـ ووضعه على مقربة من سيده الذي صالب يديه وخبأ كفيه تحت إبطيه.

قال عمر مستشعراً معاناته من التيار الهوائي المتصبب من النافذة:
ـ ما رأيكم أغلق الطاقة؟

تلمظ علي جبران مظهراً جلده على احتمال البرد وأومأ برأسه مفضلا إبقاءها مفتوحة ليستمتع بالنزر اليسير من أشعة الشمس التي

تمكنت من مراوغة أغصان شجرة الرمان والنفاذ إلى داخل الحجرة الباردة.

دفأ بنانه بكوب القهوة، ورشف منها على مهل متأملاً العصافير التي لا تكف عن التنقل بين أشجار الحديقة محدثة صخباً لطيفاً بزقزقاتها المحتدمة، وابتسم حين خطر بباله أن العصافير تلتهم وجبتها الصباحية في حال من الصياح والزعيق شبيه بما يفعله اليمنيون على موائدهم.

وحين تذكر أنه نائب في البرلمان قال لغلامه مؤنباً:
- أين الجريدة يا ولد؟

خرج عمر إلى الحديقة فرأى الجريدة ملقاة عند عتبة الباب، تلكأ قليلاً وأبرز من جيب معطفه بيضة مسلوقة، خبطها بجبهته ثم قشرها ومضغها بتلذذ المختلس، وخبأ القشور في جيبه زيادة في الحرص. وحين عاد بالجريدة وجد ربة البيت (ثائرة) جالسة في مواجهة زوجها وعيناها منتفختان من السهر.

رفع علي جبران المنهمك بالأكل رأسه وعيناه تدمعان من الفلفل:
- وصلت هأ.. الجريدة.. هيا أبصر هأ.. ما قالوا ؟

قالت (ثائرة) التي اكتفت بإفطار خفيف، مكون من تفاحة واحدة وكوب من الحليب:
- اشرب ماء وبطّل الأكل من هذا القريح، دوشتنا بهذا التهاق.

رد علي جبران مسرعاً بازدراد اللقم أملاً في لجم الفواق:

- هأ.. الله يذكرك بالخير يافندم معصار، هو الذي علمني أكل البسباس.

قال عمر وقد مال بجذعه على الجريدة في محاولة يائسة لإلهاء سيده عن الإتيان على ما تبقى من طبق الكبد:
- اسمعوا يا جماعة خبر مهم.

تابع عمر بعد أن تأكد من جذبه الاهتمام:
- رئيس الوزراء يصدر قراراً بإغلاق أماكن اللهو غير البري.

ضحكت (ثائرة) بخبث وعلقت قائلة:
- الله يعينك يا علي تدبر لنفسك عمل غير الأول.

توقف علي جبران عن المضغ والبلع متسائلاً بحيرة متوجسة:
- للمه؟

ردت (ثائرة) ملصقة ذقنها بحنكها ونظرها مسلط على عينيه بتركيز:
- ما سمعت؟ أو أنت مش داري أن القرار بينطبق عليكم في مجلس النواب؟

اقترن حاجبا علي جبران ببعضهما إنباءً بعواصف غضبه الهوجاء:
- أمانة لسانك هذا يشتي له قطع بالموس.

جاوبته (ثائرة) وضحكاتها العابثة تسبقها:
- عادي أنا قابلة تتعلم فيني وبعدها سير افتح حانوت

للمجارحه والختانه وإن شاء الله ربنا يفتح عليك أحسن من الكلام الفاضي في مجلس النواب.

اندفع عمر موافقاً بلهجة حماسية:
- وأنا يا عم علي أشتي أشتغل معك في الحانوت.

حملق علي جبران بعينين حمراوين في سحنة غلامه عمر وطيّر فوق رأسه صحناً زجاجياً:
- شغل مه يا ضأنه؟

تكسر الصحن الزجاجي شقفاً على الجدار، وتناثرت الكبد على الموكيت، ولم يهدر عمر وقته إذ انسل بخفة القط وقفز من النافذة المفتوحة إلى الحديقة وتوارى عن الأنظار.

قالت (ثائرة) وهي تسبل رموشها بدلال:
- حرام عليك فجعت الولد.

نظر إليها علي جبران من زاوية عينه ومشاعر الامتعاض تملؤه من ناحيتها، قال ورأسه يهتز توعداً بالعقاب:
- ولد قليل أدب، خزفار، أعجبه الخبر يشتي يتعلم الصنعة!

قالت (ثائرة) وهي تلعب بخصلة شعر مدلاة على جبينها:
- قل لي يا علي كم إنتوا في المجلس؟

تردد علي جبران في الإجابة لتشككه في نواياها ثم قال على مضض:

- إحنا ثلثمئة عضو.

ابتسمت (ثائرة) بمكر فظهرت أسنانها البيضاء المصفوفة بتناسق رباني جميل:

- ما شاء الله ثلثمئة عضو! هيا اسمع مني وبز عمر معك يعاونك قبل ما يجي واحد ثاني غيرك ويشل الفايدة!

قال علي جبران ويده تتحسس الصحن الزجاجي الآخر:

- ما هو؟

تابعت (ثائرة) مزاحها اللاذع وقد هربت باتجاه النافذة:

- والنسوان اللي معاكم في المجلس أوبه تستحي منهن.. العمل عمل ما بش فيه حياء.

قذفها علي جبران الذي أفقده الغضب صوابه بصحن زجاجي تكسر على سياج النافذة، فتقافزت حبات البيض المسلوقة في كل اتجاه، ونأت (ثائرة) بنفسها إلى الحديقة وضحكاتها الرنانة تفعم المكان.

سكب علي جبران لنفسه فنجاناً آخر من القهوة، ثم صرخ بأعلى صوته ليسمعها شتائمه التقليدية:

- قليلة أدب.. خزفارة!

ارتدت ثائرة البالطو الأسود وغطت وجهها بنقاب أسود شفاف، وخرجت من محبسها لرؤية الدنيا في جولة صباحية طويلة، كانت تبدؤها بالتسوق وتنهيها بزيارة خاطفة لواحدة من معارفها.

وصلت إلى سوق الحلقوم الواسع المساحة قرابة الساعة التاسعة، فوجدته هامداً وحركة المشاة خفيفة. كانت تعلم أن حركة البيع والشراء تنشط قبل شروق الشمس حين يتوافد أصحاب البقالات من حارات مجاورة لابتياع ما يحتاجونه من تجار الجملة.

أخذت تمشط السوق وهي تمسك بيد عمر الصغيرة في كفها العريضة الناعمة كوسادة من حرير. تمشت بين الصنادق المصنوعة من الصفيح التي كانت تبيع كل ما يخطر على البال من أشياء

مستعملة، كالملابس والأثاث والموكيت والأجهزة الكهربائية والمواسير والأفياش، بل وحتى الأحذية والأمشاط والمقصات والملاقط والمناديل القماشية وما شابه ذلك من أدوات شخصية جداً.

أحست ثائرة بالانقباض وفكرت أن هؤلاء الباعة الملاعين يعرضون للبيع حيوات أناس آخرين، يعرضونها هكذا في العراء دون احترام للخصوصية.

لم تكن بحاجة لشراء شيء من تلك الأشياء المستعملة، ففي حقيبتها العامرة دائماً بالنقود ما يكفي لشراء أكثر البضائع جدة ومسايرة للموضة في أسواق المترفين، ولكن الفضول ومشاعر الحزن التي تستثيرها في نفسها تلك الأحشاء المنزلية المعروضة للفرجة كانت تدفعها لإرضاء غريزة غامضة في روحها، فتحن للتردد على تلك العلب السردينية الصدئة.

اكتسبت بتوالي الأيام خبرة في تصنيف مصادر المعروضات، فالبضاعة التي تعرض قريبة من اليد هي التي تم شراؤها من مالكيها المعوزين المحتاجين لريالات قليلة يدفعون بها غائلة الجوع، وأما البضاعة التي تعرض في مكان بارز للعين ولا تصلها يد الزبون فهي مسروقة جرى شراؤها من اللصوص الذين يسطون على المنازل، وأما تلك البضاعة ذات الطابع الشخصي والمتروكة بعيداً عن عين البائع نفسه فلا يلمسها إلا مجبراً فهي التي وصلت إليه بطريقة غاية في الخفاء، لأنها على الأرجح تعود ملكيتها لأناس توفوا حديثاً.

كانت الشمس ترسل أشعتها الكاوية للجلود بوفرة ونشوة في هذه الساعة المبكرة من النهار، وكانت الرياح الباردة تصارع أشعة

الشمس فتصنع زوابع هوائية متفاوتة الأطوال ما بين زوبعة قزم لا تعلو قامتها عن المتر أو نصف المتر، وزوبعة عملاقة تجاهد للارتفاع في جو السماء لعشرات الأمتار، وواحدة من هذه الزوابع العملاقة مرت بالقرب من ثائرة فتغلغل الغبار إلى فمها وأنفها وعينيها، واجتاحتها نوبة سعال وضيق في التنفس أعجزتها عن المشي، فجلست على مصطبة تمسح وجهها بمنديل ورقي، وأحست بجلدها كله متسخاً بالغبار الذي تسلل حتى إلى تلك الأماكن المحمية بالعديد من قطع الملابس.

تابعت المشي متعكرة المزاج صوب «المدج» المبنية حوانيته ومخازنه وممراته من الأقفاص بمختلف أحجامها، وعبرت هذه المتاهة بسرعة وروحها تكاد تختنق من رائحة الدجاج الكريهة، باحثة عن ركن بائعات الدجاج البلدي الريفيات.

سحرها منظر الأرض المفروشة بعدد لا يحصى من الريش الأبيض، وابتسمت حين خطر ببالها أنه لو لم تخترع الأقلام لكان بإمكانها انتقاء ما يحلو لها من الريش لتكتب أخيراً رسالة الماجستير عن نظام الحكم في الحضارة السبئية، تلك الرسالة التي أهملت العمل فيها منذ تزوجت بعلي جبران قبل سنوات ثلاث.

ذكّرها العجيج المتعالي من وقوقة الدجاج وزعيق الباعة ومساومة الزبائن بضجيج المظاهرات الطلابية الحاشدة التي شاركت فيها احتجاجاً على رفع أسعار الوقود، وأفلتت منها ضحكة خافتة لما تذكرت شقاوتها في تلك المرحلة، يوم كانت تحمل كاميرا فيديو لتصور قمع شرطة مكافحة الشغب لزملائها بالعصي الكهربائية والغازات المسيلة للدموع، فلما انتبهوا لما تفعل طاردوها وأطلقوا

عيارات نارية في الهواء لتخويفها، فتوارت بين مجموعة من زميلاتها وأخرجت شريط الفيديو وخبأته بين فخذيها، وعندما وصل الجنود صادروا الكاميرا، ولكن واحدة من زميلاتها ـ كانت تعمل لحساب الأمن ـ نبهتهم إلى مخبأ الفيلم.. وامتدت عشرات الأكف الغليظة الخشنة تجوس في حنايا جسدها.

الشريط نفسه تكسر شقفاً متناهية الصغر، وسروالها الداخلي الأبيض مزقوه شر ممزق، وظلت بعد المظاهرة شهراً تعاني من الحكة بسبب ما تركته أظافرهم الوسخة من سحجات على جلدها!

قرفصت قبالة عجوز ريفية بحوزتها بضع دجاجات داكنة الريش موثقات القوائم وموضوعات في قرواة غبراء. ووقع اختيارها على ثلاث دجاجات فتيّات تلمع أحداقهن ببريق الصحة والعافية وناولتهن لعمر، ثم دفعت للعجوز المرتدية ملابس داكنة كدجاجاتها مبلغاً يزيد قليلاً عن سعرهن المتعارف عليه.

وسبقها عمر إلى عرصة الجزارين الذين هم مراهقون نصبوا عيدانهم في الهواء الطلق ويتقاضون أجرة زهيدة مقابل الذبح والسلخ والتقطيع.

أسراب من القطط والكلاب والحدآت والغربان كانت تحوم حول هذه السلخانة البدائية، رؤوس الدجاج والديكة تفترش الأرض وكأنها أحجار كريمة لم يتعرف عليها أحد، وأما التراب فقد حال لونه إلى السواد الضارب إلى البنفسجي لكثرة ما أريق عليه من دماء، ورغم رائحته المنفرة فقد كان هذا المكان يثير افتتانها، ويبعث فيها مزيجاً يصعب وصفه من المشاعر المتضاربة، فإذا بقلبها يزداد

خفقانه، ويتوهج الدم في عروقها، وتبدأ عينها السحرية بالحركة.. كانت قد قرأت عدة كتب عن تناسخ الأرواح إلا أنها لم تقتنع بشيء من ذلك قط. ورغم عقيدتها العلمية فقد كان منظر الدجاج المعلق من إحدى قائمتيه بحبل الجزار وسكينه تعمل فيه تقطيعاً يستحضر في مخيلتها ذكرى حوادث تاريخية غامضة غائرة في غياهب الزمن حتى لكأنها تحس بالمكان من حولها يميد ويتحول مكتسياً ملامحه التي كانت له قبل قرون.

لاحت في السماء سحابة تجري كنعجة بيضاء نحو قرص الشمس فلوحت لها بيدها، ثم تلفتت وتنفست الصعداء حين تأكدت من أنه لم يلحظ أحد حركتها الخرقاء.

كان الذباب يحط بالملايين متجمعاً فوق الفضلات وجيف الدجاج التي اشتراها عزرائيل قبل أن يلحق مالكوها ويبيعوها للبشر.

رأت عمر ـ بعد أن تخلص من عبء حمل الدجاجات وسلمهن لجزار يصغره بعامين ـ يروّح عن نفسه باللهو مع الذباب، فتارة يقفز هنا وتارة هناك فتنفر منه وكأنها جدار من فسيفساء زرقاء وسوداء مصدرة أزيزاً قوياً مشابهاً لأزيز الطائرات.

ابتهاج عمر بقدرته على إثارة ذعر تلك الحشرات الضئيلة الشأن أوقد في رأس ثائرة حاسة التفلسف فحدثت نفسها:
«كائنات مسحوقة ومكروهة ولم أسمع أحداً يثني عليها. لكنها هكذا مرتاحة تماماً.. فلا أنبياء ولا مصلحون اجتماعيون. إنها محظوظة لأنها منسية.. نحن أيضاً كان ينبغي أن ننسى لكي تسير حياتنا على ما يرام».

عرّجت على مخيمات باعة الخضار، وتسابق الأولاد الصغار بعرباتهم اليدوية، وثار جدل عنيف بينهم لمعرفتهم بسخائها في الدفع، واضطرت للصراخ واستخدام قبضتها لحسم النزاع لمصلحة أصغرهم سنّاً، وهو ولد لم يجاوز السبع سنوات، حافي القدمين، شعره كثيف فاحم السواد، وعيناه واسعتان مغبشتان بالدمع، ويرتدي أسمالاً قذرة تفوح منها رائحة عفونة تثير الغثيان.

اشترت حاجتها من الخضار الطازجة، وطلبت من عمر أن يرافق صبي العربة إلى البيت، وأوصته أن يحث الطباخة سعدية على الاستعجال في سلق الدجاجات الثلاث قبل أي عمل آخر، وأخبرته أنها ماضية لزيارة صديقة لها ثم صرفته.

تمشت في شارع لم يتبرع أحد بتسميته، ومسحت بعينيها نوافذ الشقق السكنية فوجدتها كلها مغلقة والستائر مسدلة بإحكام لحجب سكانها عن الأنظار، وحتى إذا ما فُتحت هذه النوافذ للتهوية في أحايين نادرة فإن الستائر تظل على حالها وكأنها جزء من الجدار.

وحدثت نفسها بأنها تعيش في بلد كل شئ فيه محجوب عن العين، وتحيا في مجتمع يخاف من نفسه لدرجة المرض.. فالبيوت تحولت إلى زنازن، والنوافذ فقدت وظيفتها الأصلية وباتت صماء كالقمريات يكتفى منها بإضاءة الغرف نهاراً في معظم الأحوال، وفكرت في كتابة مقالة تحلل فيها أسباب هذا الانحطاط البشري في الانتفاع بالنوافذ، ورأت أن تشير في مقدمة المقالة إلى أن النافذة هي رئة البيت وعين أهله على الخارج، ثم توضح باستفاضة كيف انقلبت منافع النوافذ إلى مضار جراء ما يعانيه المجتمع من كبت

جنسي، وكيف تبدل دور النافذة من عين لأهل البيت على الخارج إلى عين للخارج على أهل البيت تحصي عليهم حركاتهم وسكناتهم!

وحتى دخول الهواء من النوافذ لم يعد مأموناً، فثمة أشياء أخرى قد تدخل غير لائقة، أقلها التعليقات البذيئة، وستختتم المقالة بأمنية ترجو تحققها، وهي أن يحل اليوم الذي تزيح فيه الستائر جانباً وتفتح نوافذ غرفتها على مصراعيها، لتطل منها على الشارع دون أن يعاكسها أحد الوقحين ملقباً حواجبه أو يضايقها سرسري تافه بصفيره وعوائه مقلداً الأغاني الغزلية، وأن تقف بالساعات لاستنشاق الهواء والتمتع بتأمل السماء والأرض دون أن يعكر صفوها أحد، حينئذٍ ستتأكد من أن بلادها قد شفيت من دائها العضال، وأنها أصبحت أخيراً بلداً طبيعياً يمكن للإنسان أن يحقق فيه رغباته البسيطة بسهولة ويسر، ويعيش حياته مستمتعاً بالحد الأدنى من متع الحياة، والتي تعتبر الإطلالة من النافذة واحدة منها.

قطع حبل أفكارها شاب يقود سيارة صالون «أبودبة» وجهه مدور كالبدر إلا أنه مشوه ببقع من آثار الجدري، راح يمطرها بالتلميحات البذيئة ورجاها أن تصعد إلى المقعد الأمامي.

تجاهلته ومضت في طريقها، فظل يتبعها عارضاً عليها مبلغاً من المال، وأخذ يرفع الرقم بالتدريج، وحين لاحظ خلو المكان من المشاة نزل من السيارة شاهراً مسدسه وأمسكها من ذراعها محاولاً إجبارها على الصعود تحت تهديد السلاح.. كان شاباً غراً على مشارف العشرين، شعره مجعد وذقنه حليقة، وشارباه خفيفان، إلا أنه كان متين البنيان، قوي الساعد، أحمق ومتهوراً.

لم ترهب ثائرة من مسدسه فصرخت واستغاثت وقاومته بشراسة، وهي في كل حال لم تكن شابة هيفاء يمكنه حملها بيد واحدة، بل تزن قرابة السبعين كيلوغراماً، وبدنها ممتلئ يفور بالقوة والصحة، وليس بمقدور ذلك الشاب الأقصر قامة منها أن يحملها بين ذراعيه مهما كان شديد البأس!

ظلت السمكة قرابة السبعين ثانية تلبط في شبكة الصياد دون أن يتمكن من الاستحواذ عليها إلى أن تلقت يده الممسكة بالمسدس ضربة ماحقة ارتج لها بدنه كله، ووصل تيار الألم إلى تلافيف مخه، فوقع المسدس على الأرض، ورفع زنده المصاب باليد الأخرى إلى صدره، ودون أن ينظر خلفه بادر بالقفز إلى سيارته الفارهة، وفي لحظات اختفى من الشارع وكأنه شبح.

كانت ثائرة تتنفس بصعوبة، ووجنتاها محمرتان كالشفق، وجسدها كله يرتجف من الخوف والغضب، وتطلعت إلى منقذها الذي كان يحمل ماسورة حديدية وعيناها ترمشان من الانفعال دون توقف، وانعقد لسانها فلم تشكره ولا بأية كلمة، وارتبكت أكثر حين تحلق حولها في طرفة عين ـ عقب فرار صاحب محاولة الاختطاف ـ قطيع من الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يتكلمون جميعاً في وقت واحد، ولم تدرك أنها سافرة الوجه إلا حينما التقط «مطوع» متجهم السحنة نقابها الأسود من الأرض وناولها إياه ـ رغم أنه كان يتابع ما حصل لها من أول الشارع ولم يحرك ساكناً ـ فأدركت أن الخاطف أثناء العراك قد انتزعه عن وجهها، فاستحيت وغشيت الدموع عينيها لما تعرضت له من تكشف مهين، فغطت وجهها بالنقاب كيفما اتفق لتحجب انفعالاتها العميقة عن عيون الفضوليين.

ناولتها طفلة ناعسة العينين حقيبة يدها المعفرة بالتراب فأخذتها بلهفة، وحين أحس منقذها برغبتها في مبارحة المكان مد لها بمسدس الخاطف قائلاً:

- خذي هذا مسدسه.. ويا ليت تنتظري حتى أسجل لك رقم لوحة السيارة.

لم تع شيئاً مما قاله لها، كانت ترى كل ما يحيط بها وكأنه غارق في الضباب، وبلا تقصد لغاية معينة أخذت منه المسدس ودسته في حقيبتها، ورأته يبتعد عنها ويغيب بداخل محل ما، فلم تشعر بنفسها إلا وهي تستدير إلى الخلف وتحث الخطى عائدة نحو بيتها، وكم تمنت لو كان بإمكانها أن تجري بأقصى سرعتها، ولكنها خشيت أن تلفت الأنظار في وقت كانت تشعر فيه بجزع عظيم من كل شخص يصوب بصره نحوها، لظنها بأنه قد يكون على علم بما حصل لها.

وصلت إلى الفيلا لاهثة الأنفاس، وصعدت غرفتها ذاهلة من دون إلقاء التحية على أحد، وما أن أغلقت الباب بالمفتاح حتى انهمرت الدموع من عينيها زهاء ساعتين، وارتفعت درجة حرارتها فكأن حمّى الملاريا قد عاودتها من جديد.

ذهبت في سبات عميق، وحين استيقظت شعرت بأن الدنيا تدور بها وأقلقها الظلام الذي كانت الغرفة تسبح فيه، ولما استجمعت شتات نفسها أدركت أنها قد نامت منذ الظهيرة وحتى هبوط الظلام.

ولأنها شبعت نوماً ولم تر ذلك الكابوس المهلك فقد شعرت

بالحيوية وبرغبة عارمة في الأكل، تطلعت نحو الساعة المعلقة بالجدار فلم تتمكن من رؤية عقاربها، فنهضت وأزاحت الستائر الغليظة قليلاً فتسربت أضواء النيون ورأت الساعة تشير إلى السابعة والنصف.

جذبتها الفرجة من النافذة، فوقفت تراقب حركة السيارات والمشاة، وبالها مشغول بالتفكير في حادثة الاختطاف التي نجت منها بأعجوبة، ولامت نفسها لأنها فرطت في أخذ رقم لوحة سيارة ذلك الطائش، وتساءلت هل تخبر زوجها بالحادثة أم لا ؟ ثم استقر رأيها على عدم إخباره بأي شئ مبررة ذلك بقولها: «ما بش داعي للفضايح».

وحين توصلت إلى هذا القرار الحاسم خرجت من قوقعتها واتجهت رأساً إلى المطبخ، حيث تركت لها الطباخة سعدية نصيبها من الغداء فوق البوتوجاز. سخّنت الدجاجة المسلوقة ومقلى السلتة، وأكلت منهما بنهم وهما فوق النار لعظم سغبها، وختمت وجبتها السريعة التي تناولتها وهي واقفة بشرب ما تبقى في قعر القدر من مرق دسم ثخين.

وبعد أن شربت حتى ارتوت نزلت إلى القبو، فوجدت عمر في حجرته الضيقة مستلقياً على ظهره يحل واجباته المدرسية.

جلست على فراشه القطني الممدود على الأرض ونظرت إلى الأعلى فرأت سلكاً يتدلى من السقف ينتهي بأنشوطة في طرفها لمبة صفراء، فخامرها شعور بالانزعاج من هذه المشنقة المعلقة ليل نهار فوق رأس هذا الصبي اليتيم الأب.

تنحنحت ثم سألته بلهجة متوددة:
- قل لي، عمك علي تغدى هانا اليوم؟

رفع عمر رأسه وكف عن قضم ممسحة قلمه الرصاص قائلاً:
- مدري.. أنا تغديت الساعة ثنعش وبعدها سرت للمدرسة.

شعرت ثائرة بتأنيب الضمير لأنها لم تفكر قط بعيني عمر اللتين بالتأكيد تتعبان من مطالعة الكتب المدرسية على ضوء أصفر شحيح، وعزمت أن تشتري له في الغد عمود نور أبيض يتيح له المطالعة دون حاجة لأن يلصق الكتاب بوجهه ليرى الحروف.

حدجها عمر بنظرة جانبية ماكرة من عينيه الكليلتين:
- هل إنتوا متزاعلين؟

ابتسمت وفكرت أن زوجها لم يتناول غداءه في البيت، وأن عمر الذي يبدو بطنه منتفخاً كالبالون هو من أجهز على حصة سيده.

قالت متطلعة بفضول إلى كتاب النحو الجاثم بين يديه:
- ما بتفعل؟

زفر عمر وقال ساخطاً:
- أحل واجب النحو، ممكن تعاونيني؟

ردت ثائرة وهي تلعب بخصلة شعر تدلت على جبينها:
- ما هو السؤال؟

قال عمر متحمساً:
- الحرية حق للرعية.. ما هو موقع كلمة الحرية من (...)؟

تضرج وجه ثائرة بالحمرة وأفلتت منها ضحكة سرعان ما تمكنت من كتمانها مستعيدة مظهرها الحازم، قالت بصوت متهدج:
- الإعراب.. تهجى الكلمة سوا.

غاص وجه عمر بين دفتي الكتاب وقال مصححاً وقد انطفأت حماسته:
- آه ال...إ...عر..اب.. ناهي أنا مش داري ما هو الإعراب أصلاً؟

تبادر إلى ذهن ثائرة أن «الحرية» في البلد هي بالفعل موطوءة من القبل والدبر كما نعتها عمر من دون قصد منه، أو لربما كان يقصد التلاعب بالألفاظ بغرض الشيطنة، لكن المؤكد أن المغزى السياسي لم يكن ليخطر بباله.

قالت وهي تتحسس ندبة وردية في ركبتها اليسرى نتجت من مشاجرة عنيفة وقعت قبل سنوات بسبب اعتراضها على التزوير في انتخابات اتحاد طلبة جامعة صنعاء:
- الإعراب يعني إنك تُشكل آخر الكلمة.

رفع عمر حاجبيه حتى ظهرت العروق الخضراء المستدقة تحتهما:
- وما علاقة الحرية بهذا الخبر؟

قالت وقد استهواها هذا الحوار الذي ذكرها بمشاغباتها في قسم

التاريخ:
- أنت داري ما هي الحرية؟

رد عمر بصوت واطئ:
- لا.. قولي إنتي ما هي الحرية؟

عضت ثائرة سبابتها اليمنى وشعرت بالحرج من المأزق الذي أوقعت نفسها فيه إذ كانت هي الأخرى لا تملك تصوراً متماسكاً عن الحرية، فقالت بعد تلكؤ:
- اسمع يا عمر.. لا تحل هذا السؤال واطلب من الأستاذ يشرح لك معنى الحرية.. وقل له هذا أهم لك ولزملائك من بعاسيس الإعراب.

لف عمر خصلة ضئيلة من شعره الأسود المتموج القصير حول سبابته مقلداً حركات ثائرة من دون أن ينتبه لنفسه، قال وفكره يشرد بعيداً:
- ما اقدرش أسأله.

فوجئت ثائرة بجوابه الحصيف وكأنه عضو لجنة مركزية في حزب سياسي محظور:
- للمه؟

رد عمر وهو ينظر إليها من زاوية عينه:
- يمكن تطلع الحرية حاجه مش تمام!

قالت ثائرة وهي تلمس فقاعة مخاوفه المكبوتة:

- جرب اسأله.

نظر إليها عمر لوهلة متخيلاً أنها تنصب له مكيدة عند أستاذه عقاباً له على جرأته معها، قال بصوت مبحوح ويده ترسم خطاً في الهواء:

- الأستاذ معه عصا من هانا لى هاناك وهو ما يعجبش الذي يسأل.

ابتسمت ثائرة ابتسامة مائلة أقرب إلى الامتعاض، لأن الأطفال كانوا هم أيضاً ممنوعين من حرية الكلام والاستفسار، وكانت العصا تتكفل بردع مفسدي الهدوء!

فكرت أن جملة «الحرية حق للرعية» فيها مغالطة واضحة، فالحرية لا توهب من راع ولكنما ينتزعها المواطنون بقوة القوانين.

أطلقت زفرة ضنك من المغالطات الخبيثة الشائعة في المناهج التعليمية، وودعته بخبطة خفيفة على رأسه، ثم صعدت إلى الأعلى وقد نسيت أن تذكر له موقع كلمة الحرية من الإعراب.

سقط وشل هادئ في الليل فبدت المدينة مغسولة نظيفة كالوردة في الصباح.

لم تستطع ثائرة مقاومة رغبتها في التجول راجلة ـ رغم ما حدث لها بالأمس ـ وفكرت أن المسدس الروسي المعبأ بالذخيرة الذي غنمته من ذلك الشاب القصير القامة سيتكفل بحمايتها من أي عدوان آخر.

كانت في السابق تملأ حقيبتها بوزن إضافي كي لا تتلاعب بها التيارات الهوائية فيكتشف المارة خلوها ـ ولا أحد يدري لماذا تعتقد المرأة أن هذا أمر معيب ـ ولكنها في هذه المرة لم تضف شيئاً، فقد كان المسدس المستقر في قعر الحقيبة السوداء الأنيقة ثقالة كافية

لحفظ التوازن المطلوب من حقيبة يد نسائية معلقة على كتف شابة لا تعرف ماذا تفعل بوقتها الفائض.

خرجت بعد خمس دقائق من مغادرة زوجها إلى عمله في مجلس النواب، واتجهت حثيثة الخطى إلى شارعها المفضل المقوس الذي يشبه كدمة منتفخة في جبين المدينة، وحين وصلت إليه أبطأت من مشيها وانتظمت بالتدريج أنفاسها، ودخل رئتيها هواء منعش نقي خال من العفونة.

تطلعت نحو الأفق، الأفق البعيد، فوجدته محجوباً بالجبال، قلّبت بصرها في سائر الاتجاهات فلم تر سوى الجبال تنهض أمام عينيها الخائبتين، وفكرت أن هذه الجبال حواجز للعين والروح والفكر، وأنها السبب في ما يعانيه أهل المدينة من ضيق أفق وبصيرة محدودة وفهم متحيز، وما تعانيه أرواحهم من انغلاق وتجهم، فالمدينة بأسرها محبوسة في قفص صنعته الطبيعة بملايين الأطنان من الحجارة.

متعت ناظريها بمشهد سفوح جبل «قربوس سام بن نوح» الموشاة بنباتات العبيثران ذات العبير الذكي الرائحة، ثم خطر لها خاطر فمالت عن الرصيف ومشت كفقمة خارجة من البحر بحذائها ذي الكعب العالي على الحصباء الناتئة المسنونة، واقتربت من نبتة عبيثران فتية طرية الأوراق مزهوة بخضرتها، وفتحت حقيبتها ودست فيها أغصانا دقيقة، حيث نوت أن تغسلها بالماء ثم تخلطها بالشاي لتضفي على مذاقه نكهة عطرة.

هبطت من التلة المسماة «ظهر الحمار» إلى جوف المدينة العطن، وساقتها قدماها لا تدري كيف إلى الشارع الذي لم يتبرع أحد

بتسميته، ومرقت بجوارها شاحنة محملة بالموز فاشتهته، فكان أن ارتفعت الشاحنة المنطلقة بسرعة مخيفة نصف متر في الهواء بفعل مطب لم يلحظه السائق، فطار عشكول موز فاقع الصفرة على الإسفلت، وبادرت طفلة حلوة التقاطيع لها أجمل عينين ناعستين في المدينة بأخذه، وحاذت ثائرة وناولتها موزة واحدة.

تقبلت ثائرة الهدية بخفر وخبأت الموزة في حقيبتها وهي تراقب الشاحنة المبتعدة بسرور!

اقتربت بحذر من المكان الذي تعرضت فيه لتلك الحادثة المشؤومة، وحدث ما عكّر مزاجها حين ظهر رجل من محل جزارة وبيده ساطور وناداها باسمها الصريح:

- يا ثائرة عبد الحق.

حلت الرعشة في قدميها ودارت بها الأرض لأنها ظنت أن حادثة الأمس قد مرت بسلام ولن يتمكن أحد من التعرف إلى شخصيتها.

واصل الجزار كلامه مكشراً عن أسنانه الذهبية:

- البطاقة الشخصية حقك، لقيناها بعدما سرتي من عندنا.

جاوبته ثائرة بصوت خشن متشكك:

- بطاقتي أنا؟ ما أظن.. يمكن أنت غلطان.

حدجها الجزار بنظرة تيس مغتلم وكأنما يعريها قطعة قطعة:

- غلطان مه! مش إنتي ثائرة عبد الحق؟

ردت ثائرة بلهجة واهنة وهي تتلفت خشية أن يتسرب حوارهما إلى آذان المارة:

- إلا..لكن قل لي كيف عرفتني وأنا ملثمة؟

فرقعت ضحكة الجزار الماجنة متسببة في هزات متتالية لكرشه المتدلي:

- والله لو إنتي بين مليون بنت لاقدر أخرجك!

قالت ثائرة وقد خمنت أنه قد اطلع على صورتها في البطاقة وتلذذ بتخيلها في خلواته:

- أين هي البطاقة؟

رد الجزار لاعقاً شفتيه الشهوانيتين ومشيراً بيده إلى محل ملاصق له:

- بطاقتك عند منير ذيه صاحب المكتبة.

تركته دون كلمة وداع، ليقينها بأن مطالعتها لابتسامته الخرقاء قد تجلب لها أمراضاً مستعصية على العلاج!

رفعت رأسها فرأت لافتة حديدية زرقاء كتب عليها: «مكتبة ملحمة السبعين يوماً» ودفعت برفق الباب الزجاجي المؤطر بالألمونيوم، وهاجمتها على الفور رائحة ورق الكتب والمجلات المغموسة في ينابيع الأحبار الطازجة، فأرسلت في الهواء الخاشع آهة ابتهاج خافتة.

لمحت خلف دولاب العرض الخشبي الشاب نفسه الذي أنقذها من

براثن الخاطف، فألفته وسيماً بهي الطلعة حليق الذقن وفوق شفته العليا شاربان خفيفان يضفيان عليه مسحة من شهامة فرسان العصور الوسطى. عيناه لامعتان تسطعان بالذكاء وبالثقة بالنفس، حاجباه مقوسان كجناحي نسر طائر محلق في السماوات، وأنفه ذو الفتحتين الضيقتين بأرنبة ضامرة مترفعة عما حولها يعطي انطباعاً بأريحية حامل هذا الأنف الجميل وجوده وإيثاره النبيل للآخرين على نفسه.

رأته مشغولاً بتلبية طلبات تلميذة ترتدي زياً مدرسياً كحلي اللون، ناولها علبة ألوان وقبض منها الثمن، فلما لاحت منه التفاتة صوبها ارتبك في عد الفكة وناولها من دون تأكد للتلميذة التي انصرفت على مضض مغالبة فضولها في التنصت عليهما.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله.
- قال لي الجزار إن بطاقتي الشخصية عندك.
- نعم.

سحب منير درجاً خشبياً عريضاً تقشر طلاؤه الأبيض من وفرة الأيادي التي تداولت ملكيته، واستخرج البطاقة المثنية من أحد أطرافها وطرحها على الدولاب.

أخذتها ثائرة واكتشفت أنه غطى صورتها بملصق ملون لياسمينة ـ الشخصية الكرتونية الشهيرة التي رافقت السندباد في رحلاته ـ وقالت والتجاعيد عند طرفي محجريها تفضحا ابتسامتها الواسعة:

- لمه غطيت صورتي.. أو أنا قبيحة لهذه الدرجة؟

ابتسم منير ولمعت وجنتاه بحمرة خفيفة:

- بالعكس إنتي جميلة من صدق لكن قلت في نفسي يمكن إنك تتضايقي من انكشاف صورتك للأغراب.

خبأت البطاقة في حقيبتها التي فاح منها شذى العبيثران المنعش. قالت وفي داخلها انجذاب روحي تناوم إلى الشاب الواقف قبالتها:

- أين لقيتها؟

قال الشاب وهو يحد بصره في استشفاف ملامحها العذبة من وراء لثمتها السوداء الخفيفة:

- لقيتها مع الجهال الصغار كانوا يلعبوا بها قبالة المكتبة.

ردت وهي تتأمل قامته الممشوقة وخصره الرهيف بإعجاب ممزوج بالحسد:

- أظن أنها نكعت من الشنطة حقي أمس في الموقف.

انحنى منير مفتشاً في رف مزدحم بالمساطر وأقلام الرصاص وعلب أدوات الهندسة:

- آه.. ذكرت حاجة.

استيقظ بداخلها قلق من بحثه وانتابتها الهواجس. قال وقد عثر على قصاصة خضراء من الورق المقوى فتح طياتها وطالعها بتأن ثم مد بها إليها:

- هذا رقم لوحة السيارة حق ذيك الكريه.

تلقته بظاهر يدها إعراضاً، قالت وزفرة حرى تسبقها في الكلام:

- آه، ما بش داعي، الموضوع انتهى.

أبقى منير يده معلقة في الهواء قائلاً:

- كيف ينتهي بهذه البساطة ؟ أنا فكرت أعمل بلاغ للشرطة، ولكن قلت إنه من الأفضل أستأذن منك بالأول.

قالت ثائرة وهي تلامس كفه وتنزلها إشارة إلى رفضها تدخل الشرطة:

- لا، رجاءً، إذا أنت تشتي مصلحتي إنسى الموضوع وكأنه ما حصل شي.

نكس منير رأسه مفكراً برهة قصيرة ثم شد قامته وخاطبها بلهجة باردة خالية من الحماسة:

- على ما تشتي، لكنك بهذا التصرف تشجعي هذا المعراد وأمثاله على الاستمرار في اختطاف النسوان من الشوارع.

شعرت ثائرة بالحرج، أخرجت من حقيبتها مسدس الخاطف ولوحت به:

- على النسوان في هذا البلد حمل السلاح للدفاع عن أنفسهن.

ضحك منير متهكماً:

- هه.. سلاح بيد عجوز!

أصابها أسلوبه الواخز بنفور مفاجئ، وضعت المسدس على الدولاب وقالت بلهجة متصلبة رسمية:

- أشكرك على وقفتك معي، وهذا المسدس أنت غنمته فهو لك وليس لي فيه أي حق.

صدمته ردة فعلها الجافية، فدفع المسدس ناحيتها وقد تكهرب هو الآخر وظهر عرق غضوب في جبهته:

- العفو، أنا مش محتاج له، خليه معك أفضل، يمكن تحتاجيه إذا أحد تعرض لك مرة ثانية.

قفز الجزار من مكمنه وقطع جدالهما صائحاً بعد أن نفد صبره ولم يعد قادراً على التنصت المحايد:

- يا جماعة إذا ما تشتوش المسدس هاتوه لي، أنا والله في حاجته ضروري!

التفتت إليه ثائرة وهي تصعّد فيه بصرها باحتقار:
- مش عيب عليك يا حاج تتسمّع علينا هه؟

خجل الجزار من انكشاف تجسسه عليهما فانكمش في جلده كالقط المضروب. وارى منير ابتسامته الشامتة بجاره وقال لثائرة معيداً إليها المسدس:
- إذا كان هذا المسدس حقي فأنا أعطيه لك هدية مني للذكرى.

زال الكدر من نفس ثائرة حين لمحت ظل ابتسامته الفاتنة فاستعادت منه المسدس عن طيب خاطر قائلة:
- هكذا قد أنا مديونة لك بأشياء كثيرة!

ارتأى منير تغيير الموضوع وحين لاحظ أن في حقيبتها قبضة من العبيثران قال دهشاً:

- ما هو هذا.. عثرب؟

رمقته ثائرة وهي تعض شفتها السفلى نادمة على جمعها للعبيثران كراعيات الماعز وتوقعت أن يسخر منها. تابع منير بجدية:

- هل ممكن آخذ كمية منه؟

انفرجت أسارير ثائرة وضرخت فرحة:

- ياي، طبعاً خذه كله لك.

فتح منير كفيه وتلقى منها العبيثران قائلاً بتودد صادق:

- شكراً، هذه الهدية أحسن عندي من ألف مسدس.

استحيت ثائرة من الرد على غزله الرقيق، وشعرت بنبضات قلبها تتسارع، وبأنفاسها تتلاحق وكأنها حمامة مسافرة في جو السماء.

بسط الجزار كفيه مخاطباً ثائرة وقد غلبه الطمع:

- وانا ما عاد تدّي لي من هدية؟

لوت ثائرة فمها وكأن فيه حزنبلاً وقالت وهي تخرج من حقيبتها تلك الموزة التي نالتها من ذات العينين الناعستين:

- حتى أنت تشتي هدية؟ هيا خذ هذه!

أخذ الجزار الموزة وقلّبها بين كفيه باستخفاف:

- موزة واحدة ما أفعل بها؟!

قالت ثائرة وهي تضع رجلاً خارج عتبة المكتبة:

- استعملها لوجع الظهر قبل ما تنام!

رحلت في غمضة عين بداخل سيارة أجرة، ولم يتمالك منير نفسه فانفجر أخيراً يضحك ويضحك حتى أوجعه بطنه، وأما الجزار المصدوم فقد تربعت على وجهه تقطيبة مريعة لا تقل في شيء عن كارثة الإصابة بالطاعون.

كان الأولاد يلعبون بالكرة فلما رأوا سيارة فخمة مقبلة عليهم توقفوا عن مواصلة اللعب وثبتوا أعينهم على زوار الحارة الغرباء.

نزلت ثائرة من سيارة المرسيدس بصحبة زوجها علي جبران أمام بناية متهالكة من ثلاث طبقات، وتركا السائق وحيداً متفكراً في سر مجيئهما إلى أشهر مركز علاجي بالقرآن في المدينة.

اختفيا في المدخل الواطئ الذي تغشاه ظلمة خفيفة، فتنفس السائق الصعداء واستبدل كاسيت التلاوة للمقرئ القريطي بآخر غنائي للفنان علي الآنسي، وأخرج من تحت المقعد باكت سيجارة، وبنهم راح يدخن غارقاً في أحلام يقظة لذيذة.

وهما يصعدان الدرج سمعا خليطاً متنافراً من الصيحات والنواح والتلاوات القرآنية بأصوات راعدة متوعدة، فانقبض صدر ثائرة وعلا وجهها الوجوم.

استقبلهما غلام نما زغب خفيف فوق شفته العليا القرمزية، يلبس ثوباً أبيض يصل إلى بطتي ساقيه، ويعتمر سماطة بيضاء وفي فمه مسواك عريض، وبيده مصحف جيب كان يقرأ فيه.

شرح له علي جبران الغرض من زيارتهما وصوته يخفت من الخجل، فطلب منهما الغلام الانتظار ريثما يستأذن لهما من أحد المشائخ.

من غرفة مجاورة تسرب إلى سمعهما صراخ امرأة كانت تتعرض للضرب والصفع والركل، كانت تستغيث بالله والملائكة والناس ولكن لا أحد كان بإمكانه تخليصها من قبضة الشيخ الموكل إليه علاجها.

شعرت ثائرة بالغثيان من رائحة البخور التي امتزجت بعفونة غائط، تماسكت بصعوبة، وتغلبت على القيء الصاعد إلى لهاتها بمضغ اللبان.

شاهدا أماً تجرجر ابنتها شبه المنهارة من التعذيب إلى خارج المركز، وفي إثرهما عاد الغلام وقادهما إلى غرفة متواضعة الأثاث ليس فيها سوى موكيت فاقع الصفرة وبضعة مساند ومتاكئ، ومصاحف من مختلف الأحجام، ونصف دستة من الكتيبات المتخصصة في شؤون السحر والعين ودخول الجن جسم الإنسان، وطريقة الشفاء من تلك الآفات بقراءة القرآن.

جلسا وهما متوتران، فقد كانت الغرفة توحي بأنها مسكونة بأرواح شريرة، انشغل علي جبران بمسبحته مستغفراً عن ذنوبه التي تذكرها كلها فجأة، وأخذت ثائرة كتيباً عنوانه «الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار» وراحت تقرأ فيه نتفاً من هنا وهناك.

بعد مضي ربع ساعة، وصل الشيخ المرتدي ثوباً ناصع البياض يغطي جزءاً يسيراً من ساقيه المشعرتين، ويسدل على رأسه سماطة حمراء مرقطة بنقاط بيضاء كما يفعل مشائخ نجد، وفي فيه مسواك رشيق. جلس على ركبة ونصف متصدراً المكان، وسحب من أطراف أضلاعه جشأة مجلجلة، فدل على أنه أصاب طعاماً قبل مجيئه إليهما.

وعقب تبادل التحية وأسئلة المجاملة التقليدية دخل الشيخ في الموضوع مباشرة لازدحام وقته:

- خير يا جماعة، إيش المشكلة ؟

قال علي جبران متبادلاً النظرات القلقة مع زوجته:

- المشكلة يا شيخ إن زوجتي بتبسر في المنام رازم شوعة طيّر منها النوم وأظن ان قد عملوا لها سحر من سب تجنن!

نظر إليها الشيخ الذي يراوح عمره بين الثامنة والعشرين والثلاثين نظرة طويلة فاحصة ثم قال ببطء:

- هم.. ممم.. اللهم اجعله خيراً.. قولي لي حلمك يا أختاه وبالتفصيل.

تلعثمت ثائرة في البداية، وبإشارة تشجيع من زوجها انطلق لسانها من عقاله:

- رأيت في المنام قبيلي ملثم يطاردني وبيده جنبية وانا أهرب منه من بقعه لى بقعه وهو بعدي حتى أتعب واستسلم له وابصره يذبحني.

قال الشيخ مكوراً لحيته السوداء المعتنى بها في قبضته:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. كم مرة رأيت هذا الحلم؟

لاشعورياً حركت ثائرة رأسها وكأنه غير مستقر فوق رقبتها:

- قد لي ثلاثة أشهر وانا أبصر هذا الرازم نفسه كل ليلة.

قال الشيخ وهو يهز رأسه مظهراً تفاعله مع شكواها:

- حدثيني عن متاعبك.. معاناتك.. لا تتحرجي.

قالت ثائرة وقد تشجعت أكثر على البوح بآلامها:

- الصدق قد انا أكره النوم، معقده ما اقدرش ارقد، أحياناً يتكرر الرازم مرتين في الليلة إذا صممت على النوم، لأجل هذا إذا صحيت في نص الليل بعد الرازم فقد أنا أجلس ساهره إلى الصبح خايفه إذا رقدت أشوفه مرة ثانيه، ودايماً أحس بخوف شديد بعد ما أصحا من الرازم وأحس برقبتي تألمني وكأنها كانت مقطوعة وقت النوم فلما صحيت رجعت التحمت، لا يمكن أقدر أشرح لك بالكلام ما يسببه لي من تعب نفسي ويأس كامل من الحياه، تصدق مرة فكرت أنتحر لأجل اتخلص من هذا الرازم الكريه، ما افعل قد أنا قليله واجنن، الموت أرحم من هذا العذاب.

قاطعها الشيخ مظهراً تعاطفه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

تابعت ثائرة وقد بلغ بها الانفعال أوجه واغرورقت عيناها بالدموع:

- المهم.. زاد علي التعب وما عاد قدرت اتحمل، فسرت مع زوجي لى عند دكتور نفساني مشهور وما قدر يفعل شي، وجربت كل أنواع الحبوب المنومة فزادت الطينة بله، وما خرجت بأي فايده إلا القرف من حياتي، في النهار أكون تمام، أضحك واتحرك طبيعي وشهيتي مفتوحة للأكل، ولكن أول ما تظلم الدنيا تتبدل شخصيتي وأبصر نفسي حزينه مكتئبه وعصبيه جداً وخايفه من أي حركه أو صوت وما اعرفش ما أشتي، وكلما قرب موعد النوم أحس بعقلي يتبلد وذاكرتي تضعف، وأحاول أقاوم النوم أحاول بكل قوتي، وقد أجلس ليلتين بغير نوم لكن في الأخير أتعب من السهر المتواصل وارقد فيحصل إني أبصر الرازم بوضوح وتأثير أشد من الليالي العاديه فارجع أندم على مقاومتي للنوم.

تابعت ثائرة والدموع تنهمر على خديها:

- مدري يا شيخ هل مشكلتي هذه لها حل والا لا؟

نهض الشيخ وفتح مصحفاً مذهباً وبدأ يتلو سورة الجن ويده اليمنى مرتاحة على هامة ثائرة.

طفحت موسيقى الراي الجزائرية الصاخبة على ما جاورها من مساكن منسابة من بيت شعبي صغير المساحة مكون من ثلاث طبقات، وتحديداً من حجرة ترشح جدرانها بماء الأمطار التي تركت خلفها بقعاً ملحية شوهاء نبت فيها العفن الأخضر.

توصل «كبش» الشاغل الوحيد لهذه الغرفة الرطبة إلى حل بسيط لمأساة البقع، إذ غيبها عن الأنظار بصور ذات مقاسات كبيرة لفاتنات السينما ونجمات الغناء وأبطال أفلام الأكشن الهندية والأميركية.
لقد تحول الجدار المعفن إلى بازار، فبجانب النساء المسترخيات في أوضاع مغرية كانت ثمة أشياء أخرى معلقة توزعت على خارطة وهمية للملذات.. منظار، آلة تصوير فوتوغرافية، قناع مسرحي

ضاحك، آلة سشوار للشعر، تنانير نسائية، حاملات أثداء، سراويل نسائية داخلية، حلي فضية مصنوعة محلياً.

وقف كبش أمام المرآة التي راعى أن تكون على مقاس قامته متأملاً نفسه:

بدا شاباً في الثالثة والعشرين من العمر، دميم الخلقة إلى حد ما، تحتل معظم مساحة وجهه لحية جعداء ربما كانت المسؤولة عن تغييب ملامحه المقبولة عن عيون الجنس اللطيف، حاجباه كثيفان، وعيناه غائرتان، وقد كان مستاءً من قامته القصيرة، وجبهته الناتئة إلى الأمام التي تخترقها ثلاثة أخاديد أفقية، ومن الشطب في وجنته اليسرى الذي تسبب فيه شجار تافه إبان صباه، ولاحظ بامتعاض أذنيه الصغيرتين المنكفئتين إلى الداخل. ولكي يصرف الانتباه عن مقالب الطبيعة التي أنعمت بها عليه فقد وضع في إصبع يمناه الوسطى خاتماً فضياً عريضاً، وفي بنصر يسراه خاتماً رفيعاً من الخرز الأزرق، وكان يتأمل شعر رأسه بهيام إذ كان مصففاً مثل فروة كبش حقيقي!

تناثرت على الكومدينو غابة من متعلقاته الشخصية الحميمة.. أمشاط من مختلف الأحجام والألوان والأشكال، علبة سجائر كمران، طلاء أظافر، أحمر شفاه، علبة ماكياج، قارورة عرق بلدي، علبة مبطنة بالمخمل مكتظة بالخواتم والأقراط، مناديل ورقية، عشرات الصور الفوتوغرافية التي تفنن في التقاطها بنفسه، مسجلة بسماعتين، وكومة من أشرطة الكاسيت.

وهو يدندن ويتمايل مع نغمات الراي ارتدى بنطلون جينز وقميصاً

عجيباً فصّل من قطعتي قماش مختلفتين لوناً وخامة، وغطى صدره بدرع صوفية بلا أكمام من نسج «ريدة».

قام بطلاء أظافره بالأزرق الفاتح، وتختم بخاتمين أزرقين في كل كف، وعلق في أذنه اليمنى قرطاً ذهبياً مستديراً شبيهاً بأقراط البنات في سنتهن الأولى.

تفقد أزرار قميصه، دار حول نفسه متأكداً من قيافته، ثم توقف وكأنه تذكر شيئاً، قال في نفسه: «أظنها الآن تبدل ملابسها».

أخذ المنظار ووضع غطاءيه الأسودين على الكومدينو، أزاح الستارة البيضاء قليلاً وراح يراقب نافذة ستارتها نصف مرفوعة.

ظهرت في مجال العدسة شابة بثياب النوم الشفافة، فقرّب صورتها أكثر، فتوضح له أنها سمراء البشرة في خديها حمرة التفاح، شفتاها مكتنزتان طافحتان بشهوة الحياة، شعرها أسود ناعم غزير يجلل مقعدتها العريضة، وفي أسفل ذقنها شامة قسمتها نصفين فبدا وجهها آية في الجمال.

لاحظها تحرك رأسها وكأنه غير مستقر فوق رقبتها فضحك في سره منها، وأنزل المنظار قليلاً فرأى ثديين مدورين متعانقين بان نصفهما الأعلى من فتحة الروب البيج.. زلزلته الرؤية فعرته رعدة وصاح كحيوان ذبيح ثم غاب عن الوجود.

كانت شمس الصباح محجوبة بغيوم بنفسجية يهطل منها رذاذ خفيف لا يكاد يحس به المشاة القلائل في ذلك الشارع الذي لم يتبرع أحد بتسميته.

مرت ثائرة بعجلة مربوطة قرب دكان الجزار تجتر علفها سعيدة غير متوقعة الغدر من بني البشر. مسحت على ظهرها الناعم وقالت في نفسها: «مسكينة هذه العجلة عا تموت قبل ما تشبع من الدنيا!».

لمحها الجزار المشغول بتقطيع اللحم للزبائن فصاح مسفراً عن أسنانه الصفراء:

- صباح الخير أستاذه ثايره.

رمقته بنفور ومشت صوب المكتبة وهي ترشقه بسخريتها اللاذعة:
- أوبه تقطع اصبعك يا خضعي.

صرخ الجزار في أعقابها:
- آآآه!

هزت ثائرة رأسها من الغيظ قائلة في نفسها: «يا رب خارجني من هذا الجزار الأخبل، أف، كل ما يبسرني أخطى من قدامه يقوم يقطع واحده من أصابعه.. ما هو هذا الحال!».

حركت ثائرة رأسها وكأنه غير مستقر فوق رقبتها، وتابعت حوارها الداخلي الساخط: «أنا مش داريه ما هو الذي عا يقطعه لى قد كملت أصابعه العشر!».

توقفت حين رأت كهلاً يرتدي ثوباً حال لونه الأبيض إلى البني الغامق من شدة تراكم الوسخ وفانلة صوف كاكية بكمين طويلين يجرجر خشبة مربعة غليظة مطرزة بالمسامير يخرج من المكتبة ووجهه مربد مكفهر، وفمه الألوق من الغضب محاط بشعر خشن يلتف على نفسه كسلك تنظيف الأواني النحاسية وهو يطلق وابلاً من اللعنات والشتائم المختلطة ببعضها البعض.

راقبته ذاهلة لا تحيد قيد أنملة عن مكانها حتى رأته يغيب في زقاق ترابي ظليل.

أطلت برأسها من باب المكتبة فرأت منيراً يجلس هادئاً على كرسيه ويطالع مجلة ثخينة أشبه بالمجلد. تنحنحت بدلال، فانتبه ونهض

مرحباً بها ودعاها للدخول.

قالت وهي تتكئ بكوعها على دولاب العرض:
- من هو هذا الذي خرج من عندك؟

رد منير وحدائق البهجة تزهر في دمه:
- هذا الحاج زبطان.

ضحكت ثائرة من غرابة الاسم:
- ها.. زبط..ان.. وما كان يشتي منك؟

نقر منير على المجلة وبان الأسى على ملامحه:
- أظن أن به واحد خسيس وشى بي عنده وقال له إني نشرت مقالة أطالب فيها بدستور علماني لليمن.

ارتسمت الدهشة على محيا ثائرة التي قالت بلهجة حذرة:
- أكيد حصل لبس في الموضوع؟

رد منير وهو يخرج من درج سفلي مجلة زاهية الألوان:
- لا، الموضوع صح.. لكن المصيبة ان الحاج زبطان أمي ما قراش المقالة ولا به أحد قراها له.

أخذت ثائرة المجلة وبحثت في الفهرس والتمعت عيناها حين عثرت على المقالة التي كانت بعنوان: «رؤى مستقبلية لدستور جديد».

قالت وأذناها تحكانها متوقعة أن تثير حنقه:

- أظن إن كلام الحاج زطبان صحيح.. صورتك تشتي دستور علماني!

قال منير وهو يدير وجهه نحو باب المكتبة متوتراً:
- لا تستعجلي في إصدار الأحكام مثلهم.. أنا أطلب منك على الأقل تقرئي خطبة معاوية بن أبي سفيان وبعدها نتناقش.

أومأت ثائرة برأسها موافقة وقرأت في سرها خطبة معاوية بن أبي سفيان:
(أما بعد فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم. ولا مسرة بولايتي. ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة. ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن ابي قحافة، وأردتها على سنيات عمر، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً. وأردتها على سنيات عثمان فأبت علي. فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فأنا خير لكم ولاية. والله لا أحمل السيف على من لا سيف له. وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني. وتحت قدمي. وإن لم تجدوني أقوم بحقكم لله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم من خير فاقبلوه، فإن السيل إذا جاء أثرى، وإن قل أغنى. وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة. وتكدر النعمة).

أتمت قراءة الخطبة ونظرت إلى سقف المكتبة المغطى بألواح خشبية بيضاء:
- شي ما يصدقش العقل، صحابي جليل يقر بأنه لن يحكم الأمة على طريقة السلف.. هذه صراحة نادرة جداً!

قال منير وقد أشرقت أساريره متبيناً أنها على قدر لا بأس به من الثقافة:

- نعم، وأنا بنيت مقالتي كلها على هذه الخطبة التي أعتقد أنها أهم خطبة سياسية في التاريخ الإسلامي كله.

شرد فكر ثائرة في تأمل قسمات وجه منير، وقالت من دون تركيز على مجرى الحديث:

- لا أظن إنها مهمة لهذه الدرجة.

تراجع منير بجذعه إلى الوراء قليلاً وكأنه يتحاشى ضربة غير متوقعة:

- بالعكس يا أستاذة، هذه أول خطبة سياسية في الإسلام تعلن بصراحة ووضوح فصل الدين عن الدولة، تخيلي إنه في عهد الصحابة أعلن معاوية بن أبي سفيان إنه سيحكم المسلمين بحكم دنيوي لا علاقة له بالدين!

عاودت ثائرة تصفح المجلة وهي تبتسم وقد تذكرت مناوشاتها الخطرة مع السنيين في الجامعة:

- هذه والله خطبة خطيرة فعلاً وتهدم كل مزاعم الجماعات الإسلامية اللي تطالب بحكومة دينية.

تنفس منير الصعداء لأنها قالت باختصار كل ما في نفسه:

- وأنا في هذه المقالة اقترحت دستوراً جديداً لليمن مستمداً من تجربة معاوية بن أبي سفيان في الحكم، فإذا كفروني فهذا يعني انهم يكفرون صحابياً جليلاً ويكفرون كل الصحابة

الذين ارتضوا اجتهاده في الدين، وكما هو واضح من الخطبة فإن معاوية بن أبي سفيان اجتهد برأيه الشخصي متطابقاً مع واقع الحياة المستجدة في عصره ورفض التمسك بالتقاليد البالية التي أكل الدهر عليها وشرب منذ ذلك الوقت!

تلونت ابتسامة في زاوية من فم ثائرة التي تابعت سطراً أعجبها:

- أنت داري إنه أول حاكم عربي مسلم يعطي للناس حق حرية التعبير: (والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي).

قال منير متأملاً العينين الكحيلتين اللتين تسبيان الرجال:

- والأجمل إنه ضمن للناس حقهم في حياة آمنة وحمايتهم من الاعتقال التعسفي.

قالت ثائرة وهي تميل رأسها وتهدهده وهي حركة تبدر منها حينما تكون راضية عن شيء ما:

- ممكن اشتري نسخة من هذه المجلة؟ شوقتني أرسل لهم بحقي المقالات.

رد منير مبتهجاً بتفاعلها معه وأخرج من الدرج السفلي نسخة أخرى من المجلة:

- ممكن، أنا متأكد إنها عا تعجبك.

أخرجت ثائرة من حقيبتها ورقة نقدية من فئة الألف ريال وأرادت

أن تدفع له قيمة النسخة، إلا أنه اعتذر عن أخذ الورقة وأصر أن يهديها المجلة، فعوضته عن طريق شراء حاجيات أخرى ـ دفاتر وأقلام ـ نوت أن تقدمها للمشاكس الصغير عمر.

سألها منير وقد أثارت فضوله حين ألمحت إلى محاولاتها في الكتابة:
ـ قلت قبل قليل إنك بتكتبي مقالات؟

ردت ثائرة وشيء من الخفر يعتريها:
ـ .. مش مقالات مثل ما بتتصور، هكذا أشياء بسيطة تقدر تسميها انطباعات.

قال منير وثمة شوق خفي يدفعه للتعرف على أسلوبها في التفكير:
ـ طيب ممكن إقراها؟
ردت ثائرة وفي داخلها حبور تجلى في توهج وجنتيها لكونه أعطاها خيطاً تسترشد به إلى عالمه:
ـ أكيد، وقدها فرصة أعرف رأيك فيها.

تبادلا ابتسامة متواطئة، فكل واحد منهما كان يرغب في رؤية الآخر وسماع صوته.

نظرت إلى ساعتها فوجلت إذ لم يتبق سوى القليل على ميقات عودة زوجها إلى البيت.

ودعت منير دون كلمات تقريباً، وخرجت من عنده وهي غير راغبة في ترك المكان.

وعقب ابتعادها أغلق منير المكتبة، واتجه إلى مقهاه المفضل ليشرب شاياً بالحليب المحوج وهو يرمل فارداً ذراعيه متخيلاً نفسه طائراً على ارتفاع شاهق عن الأرض لفرط نشوته وتهيامه بالسجادة الحمراء الباذخة التي فرشتها في طريقه أنثى جميلة كان ينتظر حضورها البهي في حياته منذ أمد بعيد.

توالت زيارات ثائرة المسائية لمركز العلاج بالقرآن، وتقاعس زوجها علي جبران عن الحضور معها، فاضطر الصبي عمر إلى التغيب عن المدرسة ليرافق سيدته كمحرم لها.

أخبرها الشيخ هلال الذي بح صوته من تلاوة القرآن على جمجمتها القاسية أن في رحمها جنياً شقياً ما يزال يحبو ولم يتعلم الكلام بعد، ولذلك هو لا يعقل آيات القرآن ولا يدري ما هي فلا تضره، أو بتعبير الشيخ هلال: «عاده جني صغير أخبل!».

حكى لها الشيخ هلال حكايات كثيرة عن معاركه مع الجن ـ الكبار ـ وكيف كان يحرقهم بالقرآن ويخرجهم من أجساد النساء والرجال بعد جلسات قليلة.

نصحها بأداء الصلوات الخمس في أوقاتها، وتلاوة القرآن عقب كل فريضة، ولزوم الطهارة في كل وقت ما أمكن، وأرشدها إلى أدعية وآيات تقرؤها قبل النوم زعم أنها ستضمن لها نوماً مريحاً خالياً من الكوابيس.

وبما أن تلك الأدعية والآيات لم تكن تقدم ولا تؤخر فقد اشتكت إليه من استمرار الكابوس وصارحته أن كل نصائحه لم تكن ذات نفع.

عبس الشيخ هلال وقرر استخدام الماء القرآني، وصفته أن يقرب الشيخ وعاء الماء من فيه فيقرأ آيات معينة من القرآن بحيث تمتزج أنفاسه بذلك الماء، زاعماً أنه سيحرق الجني الطفل ولو أدى ذلك إلى تعرضه لخطر الانتقام من أمه المارد.

وأحضر الشيخ طستاً، وأمر ثائرة أن تكشف عن ساقيها وتمددهما فوق الطست، وراح يقرأ كمن يحقق مع متهم يراد انتزاع اعترافاته بالقوة.

مرر بنانه المبلولة على الساقين الأملسين المدورين وقلبه يثب بين ضلوعه. ولما شعرت ثائرة ببراثن الشيخ تتجاوز الركبتين وتتوغل إلى ربلتي الفخذين مسها تيار كهربائي فانتبهت من الحالة الشفقية التي أوصلها الشيخ إليها، وطلبت بحزم إنهاء الجلسة قاذفة بين رجليه برزمة أوراق مالية، وبعد دقيقة كانت في الشارع تتنفس من جديد هواءً نقياً.

سألها عمر بتخابثه المعهود وهما يصعدان السيارة ويجلسان في

المقعد الخلفي:

- نسينا ما نسأل الشيخ هل مات الجني والا لا؟

قالت ثائرة وكأنها تكلم نفسها:

- ما فايده إذا مات؟ اليمن ملان جن، ويمكن يجي واحد أخس من الأول!

أدمن «كبش» مراقبة ثائرة بمنظاره كل صباح، وأصبح ينتظر الساعة الثامنة بشوق ولهفة، ففي هذه الساعة تدخل أشعة الشمس إلى الحجرة الشرقية فيفيض الضوء في أبهائها.

وبعون زوم كاميرته الفوتوغرافية تمكن من التقاط صور مثيرة لسوسنته الوسنانة وهي في أوضاع غير محتشمة، مسترخية على سرير النوم وثوبها الخفيف محسور إلى خاصرتها مطمئنة إلى خلوتها بنفسها، غير مدركة أن هناك على البعد من يحصي أنفاسها.

رآها تلبس بنطلون استريتش أسود وفانلة زرقاء ذات كمين قصيرين مرسوم عليها سفينة خشبية بصارية وشراعين. وعطرت نحرها وإبطيها، ثم ارتدت البالطو الأسود ومكثت ربع ساعة تصلح النقاب

الشفاف على جلدة وجهها بحيث تكشف عن تقاسيمه بأكثر مما تخفي.

راقبها حتى تأكد من تجاوزها عتبة الباب الخارجي وحيدة، فلبس جزمته الرياضية البيضاء على عجل من دون جوارب وخرج يطلبها.

وافاها عند منعطف الشارع تمشي متريثة بقرب قطيع غنم يلتهم بشراهة لصق برميل القمامة ما كانت الراعية الصغيرة تجده من فضلات الموائد.

لمحته ثائرة يحث الخطى وبصره مسدد عليها كالسهم، فقالت في نفسها متشائمة: «يا الله رضاك!».

كانت تتوقع منه أن يسمعها كعادته جملة بذيئة ثم يتبعها من زقاق لزقاق إلى أن تتمكن من تتويهه، ولكنه في هذه المرة لم ينبس بحرف وفاجأها بضربة موجعة على عجيزتها الوافرة فارتج بدنها كله واندفعت إلى الأمام من قوة الضربة.

وقف على مبعدة منها وعلى شفتيه ابتسامة طفل مغتبط بمغامرته الصبيانية الخرقاء.

صاحت فيه وقد اخشوشن صوتها من الحنق:

ـ هيه يا قليل الأدب، قسماً بالله لأكلم زوجي وأخليه يحبسك.

ضحك كبش وهو يهدهد رأسه طرباً لنجاحه في إخراجها عن وقارها:

- من قصدك؟ علي جبران؟ والله هذا حتى أمي ما تقبلش به زوج!

بسط كبش سبابته إلى الأسفل وحركها بارتخاء.. ففهمت ثائرة من إشارته الوقحة تلميحه إلى أن .... زوجها رخو لا ينتصب.

سكن غضبها كجمرة صب فوقها ماء بارد ولم تحر جواباً، بينما أقعى كبش وضحكاته الماجنة تفتك بأعصابها كسم الأفعى.

شعرت بانهيار مفاجئ في معنوياتها، وسيطرت عليها حالة من التقزم والانسحاق لم تعرف لها مثيلاً من قبل، ومن دون تفكير عادت أدراجها ملغية جولتها الصباحية، ووحدها الأغنام ودعتها بثغاء حزين.

مدندناً بزامل شهير لأحد شيوخ الحرب الأهلية في ستينيات القرن الماضي من مؤيدي الملكية راح الحارس الذي تنكب بندقية كلاشينكوف يجوب حديقة الفيلا من جهاتها الأربع.

كانت الجنادب تجاذبه أطراف الحديث بصريرها الموسيقي الفج.. (ما با نجمهر قط..).

الحارس المحدودب القامة، المنكمش الوجه، المتمسك بشعيرات قليلة متناثرة على جانبي صلعته كان منسجماً مع نفسه ومكتفياً بذاته عن العالمين، وقد تكيف مع مهنته الليلية بصورة مدهشة، واعتصر منها متعاً سرية ميكروسكوبية لا يعرفها أحد سواه، منها على سبيل المثال تعلقه وافتتانه برؤية الشهب المهرولة في سواد الليل بذيولها الملونة

البراقة التي تترك وراءها في بعض الأحيان ومضة وداع أشبه بقبلة رقيقة.

في داخل الفيلا كانت الصالة مضاءة وعامرة بضجة تلفاز ثرثار، وعلى الأريكة المواجهة لداء العصر تمددت ثائرة المرتدية بذلة رياضية تتصاعد منها رائحة العرق وفي أعطافها بقع ملحية وبيدها جهاز التحكم عن بعد تبدل به القنوات.

أمامها على الطاولة سندوتش بشرائح المارتديلا لم تقضم منه سوى قضمة واحدة عليه آثار أسنانها، وعصير مانجو في كوب زجاجي نصف مملوء.

هبط علي جبران إلى منتصف الدرج وأطل منحنياً وليس على بدنه سوى ثيابه الداخلية:

- ثايره حبيبتي، للمه ما تطلعي ترقدي؟

رمقته ثائرة بنظرة ازدراء خاطفة ثم تابعت تبديل القنوات بسرعة أكبر:

- ما اشتيش ارقد.

ابتسم علي جبران ورقق صوته:

- باهر، إذاً ما رأيك لو جلسنا على السرير نلعب بطه؟

أطلقت ثائرة زفرة غم واشمئزاز:

- أف، ضبحت من لعب البطه، ضبحت من حياتي كلها، رجاءً سير ارقد وتغطى تمام وفلت لي في حالي.

تجمد علي جبران خلفها من حيث يراها ولا تراه صاباً على جنبها الظاهر له نظراته النارية محدثاً نفسه: «كلبة..ملعونة.. لا ينفع معها المعروف.. الذبح قليل عليها».

مكث في مكانه مدة دقيقة كاملة مقلباً في رأسه أفكاراً شيطانية مرعبة، لكنه تراجع عن تنفيذ أي منها، وصعد الدرج بخطوات ثقيلة غاضبة.

التفتت ثائرة إلى الوراء لتتأكد من غيابه، ثم تنفست الصعداء وحركت رأسها وكأنه غير مستقر فوق رقبتها.

كان الملل يرزح على صدرها كجبل قربوس سام بن نوح، وعجزت مئتا قناة فضائية عن طرد النوم من أجفانها المسودة جراء السهر المتطاول.

من التلفاز انبعثت محاورة لطيفة طرفاها الممثلة الإيطالية صوفيا لورين والأديب العالمي ألبرتو مورافيا:

مورافيا: قرأت في مجلة «تايم» أنك تحلمين حلماً واحداً لا يتغير.. احكي لي هذا الحلم؟

لورين: أحلم دائماً أني على البلاج عند غروب الشمس والبحر هادئ ناعم كالفستان الأزرق، والشمس حمراء كالنار وتهبط في الأفق.. وأجد نفسي أجري على البلاج. أجري وأجري وأجري.. دائماً أجري وأصحو من النوم.

مورافيا: نحاول إذاً تفسير الحلم، لا على طريقة فرويد، ولكن على الطريقة البابلية القديمة، أو على الطريقة التي وردت في الكتاب المقدس، هل تحبين أن أفسر لك ذلك؟

لورين: تفضل.

مورافيا: البحر هو الاستقرار الذي تتمنين تحقيقه، والشمس الحمراء هي نجاحك الفني، وكان في استطاعتك أن تطيلي النظر إلى البحر الهادئ ولكنك على خلاف ذلك نظرت نحو الشمس وهي النجاح الفني، ولكن هل عرفت ماذا يحدث لكل من يريد أن يبلغ الشمس؟

لورين: ماذا يحدث لهم؟

مورافيا: يعبرون طريقاً طويلاً من دون أن يشعروا بأنفسهم، لأن الشمس بعيدة جداً، ولأنها تضيء لهم هذا الطريق. كم فيلماً تنوين أن تظهري فيها؟

لورين: على قدر ما أستطيع. طول عمري.

مورافيا: ألاحظ أنك لم تحدثيني قط عن والدك، فهل كانت أمك مطلقة؟

لورين: أمي لم تتزوج قط.

مورافيا: هل كنت ترين والدك أحياناً؟

لورين: ربما لم أره قط، فلم يكن يحب أن يجيء لزيارتنا.

مورافيا: إذن كان من النادر أن يتردد أبوك عليكم؟

لورين: نعم، لكي يحضر كانت أمي تبعث له ببرقية تقول فيها: صوفيا مريضة جداً. احضر!

مورافيا: وكان يحضر؟

لورين: في معظم الأحيان كان يمتنع عن الحضور ولا نكاد نراه حتى يكتشف عدم مرضي، فيسافر في اللحظة نفسها إلى روما غاضباً.

مورافيا: كيف كان يتصرف مع أسرتكم في بوتسلي؟

لورين: كان غريباً، ولم يكن أحد يراه إلا ساعة وصوله، لم يكن أحد قادراً أن يؤاخذه أو يعاتبه على أنه لم يتزوج أمي. إنه كما يقول المثل: حمار بين الأغاني.

مورافيا: ما معنى هذا المثل؟ لم أفهم.

لورين: هذا مثل نردده في نابولي ومعناه: يبدو دخيلاً بيننا.
انطفأ التلفاز وغابت الأصوات في الأثير.

كانت ثائرة غافية على الأريكة، والسندوتش بشرائح المارتديلا قد تناقص إلى نصفه، وعصير المانجو لم يبق منه سوى فضلة في قاع الكوب.

أحست ثائرة بالصمت المطبق الذي لف الصالة بغتة.. ففتحت عينيها ورأت الشاشة سوداء خرساء، شعرت بالقلق وراحت تبحث عن جهاز التحكم عن بعد، وإذا بيد سمراء لوحتها الشمس غزيرة الشعر تمتد من ورائها وتتموضع فوق ثدييها. قفزت من مرقدها وكأن حية لدغتها لتواجه رجلاً ملثماً يرتدي ثوباً رصاصياً ومعطفاً غامقاً كان منذ مدة مقرفصاً لصق الأريكة وهي غافلة عنه.

صرخت وكفّاها يتموجان على أذنيها وولت فراراً منه، فتحت باب السكن الخشبي ولمحته يتبعها بخطوات رزينة كفيلسوف زاهد وقد أشهر جنبيته وراح يرقصها بخفة وكأنه في عرس.

خرجت إلى الحديقة المضاءة بنور البدر الذي ينسج المحار لآلئه على صورته، وأطلقت لساقيها العنان وهي تنظر إلى الخلف بين الفينة والأخرى.
دارت حول الفيلا عدة مرات بحثاً عن الباب الخارجي الذي بدا وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته وتساءلت في نفسها والعرق يتصبب من مسام جلدها: «يا الله أين الباب؟؟».

مضت قرابة الساعة وهي تطوف حول السكن، والرجل الملثم يتبعها من دون هوادة. أدركها الإنهاك والتعب فجثت على ركبتيها، وبخطوات وئيدة اقترب منها الرجل الملثم ووضع النصل البارد على جيدها، فارتاعت وصرخت معاودة الجري رغم أنها كانت تلهث من شدة العطش، وعندما أحست بقواها تتلاشى تماماً اتجهت إلى جدار السور وتحسسته بيديها بحثاً عن الباب المفقود وهي تبكي وتصيح بأعلى صوتها:

- أين الباب؟ أين سار؟

وكلما أحست بدنو الرجل الملثم منها راحت تخبط الجدار بعنف وتنتحب بلوعة وتخاطب الباب الضائع وقد بح صوتها من الصراخ:

- أين ضعت يا باب؟ لمه تفعل بي هكذا؟ حرام عليك.. حرام.

وخزها الرجل الملثم بذؤابة النصل، فتأوهت مستسلمة له. ألزق ذبابة الجنبية بلغدها أسفل الذقن مباشرة وذكّاها بحز بطيء، فأطلقت ثائرة حشرجة أخيرة وسال الدم مدراراً تحتها.

أضاء مدخل السكن قنديل أصفر، ومن وراء أسوار الفيلا تعالى نباح الكلاب، ومن الأعلى كان البدر يخضخض الظلام بنوره الفضي، ومن عشب الحديقة المعتم انبجس صرير الجنادب متسولاً إعجاب الله.

في هذا المحفل المتواشج الأواصر كانت ثائرة وحدها تغرد خارج السرب. أسدلت ستار الجفنين إلى النصف، وانتبذت ركناً قصياً تؤدي فيه طقس التضحية البدائي.

ركعت أمام شجرة كافور معمرة متشابكة الأغصان، وطوقت بذراعيها الجذع الضخم، وضغطت رقبتها على غصن ناتئ حاد كالسكين، وتحشرجت أنفاسها متطوحة بين أحضان الموت.

رأى الحارس العجوز شبحها منذ خرجت من المسكن، وظل يرصد تحركاتها الغريبة محاولاً الفهم من دون أن يتدخل بسؤالها، ثم انتبه في آخر المطاف إلى أنها كانت تخنق نفسها. اقترب منها وناداها باسمها فلم تجبه، ولاحظ أنها برغم أنينها المكتوم تبدو منوّمة. كان هو نفسه مرعوباً من هيئتها، فلكزها في جنبها بعقب البندقية، فانتفضت مروعة، وصوتت مسترجعة روحها من كف عزرائيل، وأعدت ردة فعلها الوجلة الحارس الذي رد عليها بصرخة مضادة.

وقفت ثائرة وأنفاسها متلاحقة كأنها راجعة من تحت سطح البحر، وتلفتت حواليها مستوحشة مستنكرة:

- ما هو الذي اداني لى هانا؟

لم يسمعها الحارس، فأعادت عليه السؤال بصوت مرتفع، فجاوبها وهو ينظر في إنساني عينيها المتسعين الجاحظين:

- ما احد.. صورتك بتمشي وانتي نايمه.

تنهدت ونكست رأسها، وشعرت بكرب عظيم من هذا التدهور المتفاقم لحالتها المرضية. وادعها الحارس ممسياً، وعاد أدراجه إلى ركنه المفضل عند شجرة الرمان المثمرة بشوالات لا تنفد من النوم الهنيء.

سارت إلى السكن بخطوات متثاقلة ورأسها يتحرك وكأنه غير مستقر فوق رقبتها، وحين ألفت نفسها في المدخل لمحت هيكلاً يتحرك بين الشجيرات، فأجفلت وقفزت إلى الداخل بقلب واجف مضطرب، وأقفلت الباب خلفها من دون أن تأبه لارتطامه المدوي بالضلفة الأخرى، وركضت إلى غرفة النوم وقد اختلط عليها الواقع بالخيال وزال الحاجز الوهمي بينهما على نحو مرعب يزلزل أعتى العقول.

بدت الشمس في السمت بعيدة أكثر من المعتاد وكأنها تنأى بنفسها عن مقاربة المجتمعات الأرضية الكريهة، والعصافير تزقزق رائحة غادية في الحديقة ورؤوسها الدقيقة لا تكف عن الدوران في كل الاتجاهات توقياً من حجر غادر.

وقف مدير قسم شرطة الحلقوم عند مدخل سكن الفيلا، وبيده سلسلة حديدية تنتهي بطوق جلدي ملتف حول رقبة كلب بوليسي مغذى جيداً وبره أسود أبيض، وروّح عن نفسه بملاعبة حيوانه ريثما ينزل علي جبران لمقابلته.

كان ضابطاً برتبة مقدم، مكتمل الرجولة، حليق الذقن، يربي شاربين مهيبين فاحمي السواد، أسمر البشرة، يضع خاتماً من العقيق في

إصبعه الوسطى اليمنى، رياضي القامة، مفتول العضلات، يصلح أن يكون مصارعاً.

خرج علي جبران حاملاً كيساً مثقلاً باللحم الطازج، تصافحا وتبادلا التحية.

قال الضابط سيف مناولاً القيد للحارس ناجي المتهيب من الكلب:

- هذا أحسن كلب بوليسي عندنا في المديرية، أنا متأكد إنه عا يعجبكم.

ناول علي جبران كيس اللحم للحارس ناجي وأومأ إليه أن يطعم الكلب:

- يا فندم الدنيا أمان لكن ما نفعل مع النسوان؟ حقنا إذا هن ناقصات عقل؟

مد الحارس ناجي بوصلة لحم للكلب البوليسي فتلقفها بلهفة وبلعها من دون مضغ، وانفتحت شهيته فأخذ يثب ويهز ذيله وينبح برقة مطالباً بالمزيد.

قال الضابط سيف وشبه ابتسامة تشق طريقها إلى شفتيه الغليظتين:

- ناقصات عقل؟؟ لا هذا كلام غير مقبول من نايب في البرلمان ومن أي حزب؟؟ الحزب الاشتراكي اللي بيطالب بحقوق المرأة!

قال علي جبران وحاجبه الأيمن المرتفع عن الآخر يعبر عن انزعاجه:

- وإذا به واحدة بتبسر أحلام شوعه في الليل وتقوم الصبح

وتطلب منك كلب حراسه، بالله عليك هذا ما يسموه؟ مش قلة عقل؟

التقم الكلب البوليسي وصلة لحم من الهواء وكاد يعض يد الحارس ناجي الذي أصدر آهة قصيرة فضحت ذعره.

قال الضابط سيف مبتهجاً بحصة اللحم الوفيرة التي ازدردها الكلب:
- لا، أنا أنظر للموضوع من زاوية مختلفة.

نظر إليه علي جبران من طرف عينه:
- كيف؟
- أنا أعتقد إن هذا الكلب محظوظ، دعت له أمه فسخّر الله زوجتك تطلبه وترعاه عندها.

رد علي جبران مبتسماً بسخرية:
- كلامك صدق، صورته هذا الكلب طايع والديه!

نفد اللحم فراح الكلب ينبح ويتواثب، فأيقظ ثائرة من نوم مغتصب، وفتحت النافذة وقالت من وراء الستارة:
- يا علي هو هذا الكلب الذي وصيتك عليه؟

رفع علي جبران بصره إلى النافذة فلم يتمكن من فتح عينيه بسبب ضوء الشمس المنعكس من الزجاج:
- نعم، هو ذا قد وصل بالسلامة، تشتي تسمعي منه أخبار أقاربك؟

توارت ثائرة قبل أن تتلقى منه جوابه السالف، فتنفس الصعداء:
- يوه، الحمد لله إنها ما سمعتنيش!

كركر الضابط باقتضاب، وأخذ يربت على الكلب ليكف عن (الدحبشة).

سأله الحارس ناجي وقد بذل جهده لرفع أجفانه المتهدلة عن أفق عينيه الضبابيتين:
- يا فندم، هذا الكلب ما اسمه؟
- اسمه رغال.

تهاوت أجفان الحارس ناجي إلى الأسفل أكثر من السابق وقد خاب توقعه:
- نوال! لكن يا فندم هذا اسم مكلف أعزك الله ما يليقش بكلب مشورب ساع هذا ؟
كوّر علي جبران يديه وقرّبهما من غضروف الحارس ناجي وزعق:
- اسمه رغال، رغال، سمعت؟

هز الحارس ناجي رأسه وإن كانت ملامحه لا تدل على ارتياحه لذلك الاسم المخنث بحسب اعتقاده.

قال علي جبران وهو يحك أنفه:
- هو سمعه ثقيل.. الله يحفظنا.

قال الضابط متلمساً أذنه وموحياً بتضامنه مع الحارس:

- للشيخوخة أحكامها، وإذا أطال الله أعمارنا فكلنا واصلين إلى ما وصل إليه.

قال علي جبران وقد شد قامته وسحب كرشه الصغير إلى الداخل:
- الموت عندي أهون من الحياة هكذا، ما عادوه عُمر إذا قد الحواس ضعفت والأعصاب تلفت والجلد تجعد والعقل خف.

فُتح الباب وبرزت منه ثائرة ملثمة الوجه، وقد ارتدت فستاناً بيتياً بسيطاً وردي اللون تزين كميه الطويلين شرائط الدانتيلا البيضاء، لم تكن معطرة، لكن شذى رائحتها الخصبة ملأ خياشيم كل المتواجدين في المدخل.

صبّحت عليهم، واقتربت من الكلب البوليسي مدققة في قوائمه ومظهره العام مؤملة في خلوه من العيوب.

أطلّت الطباخة سعدية المفزوعة من وراء الباب ومعها كيس لحم، فخطفه منها علي جبران وناوله لثائرة:
- هه جرّي، أكّليه بنفسك من سب يقع بينكم عيش وملح!

لم تأبه ثائرة لتهكم زوجها، وقامت تطعم الكلب فرحة. قال علي جبران وقد داخلته الغيرة من هذا المنافس الجديد على عرش قلبها الضيق أصلاً:
- هيا مه؟ ما بش حتى كلمة شكرا!
- شكراً.

قال علي جبران وكأنه يدفع عن نفسه تهمة:

- لا تشكريني أنا، اشكروا الفندم الذي ادّى لنا أحسن كلب عندهم.

رمت ثائرة الضابط بنظرة امتنان خاطفة:
- شكراً لكم يا فندم.

هز الضابط سيف رأسه رداً على تحيتها، علق وهو يراها تأخذ بزمام الكلب وتتجول به سعيدة في الحديقة:
- صورتها فارحه به قوي.

أمال علي جبران رأسه محنقاً من فرحها الزائد بالكلب:
- الله يهنيهم ببعض!

تأهب الضابط سيف للمغادرة:
- أستأذنكم يا سيدي.

أمسك علي جبران بمرفق الضابط:
- إلى أين؟ انت اليوم ضيفي على الغدا.

نظر الضابط سيف في ساعته متردداً في قبول الدعوة:
- ما اقدرش، معي جلسة تحقيق الساعة ثنعش.

شبك علي جبران ذراعه في ذراع الضابط وقاده إلى داخل السكن:
- مع! ما يمكنش تخرج من بيتي وقده وقت الغدا.. عيب!

دخلا معاً، فأرسل الكلب نباحاً قصيراً منبهاً سيدته الجديدة إلى

مبارحتهما المكان. ابتسمت ثائرة من بادرة الولاء التي أظهرها الكلب ومسحت على رأسه تحبباً، وأحست ببذرة الأمان تنمو بداخل روحها الجزعة.

وضعت لهما الطباخة سعدية شاة محنوذة محفوفة بالأرز كطبق رئيس، وبجانبها أطباق السلطة والمقبلات.

شمّر علي جبران وضيفه عن أكمامهما وشرعا في التهام لحم الشاة.

قال الضابط سيف وجسد ثائرة الفوار بالشباب يرتسم في مخيلته كنزاً مسحوراً:

- يا أخي العزيز عندي شعور قوي إنكم بتعانوا من مشكله ما ادري ما هي، وعلى كل إذا كان هناك تهديد من أي نوع فأنا على استعداد اطرح عندكم ثلاثه عسكر يكونوا تحت تصرفكم.

رد علي جبران متجنباً النظر إلى الضابط ومتشاغلاً بفلق جمجمة

الشاة:

- ما بش داعي، لا تقلق نفسك، الموضوع تافه وما يستحقش اهتمامك.

نظر الضابط سيف متمعناً في يدي علي جبران المتوترة، وقال محاولاً فتح ثغرة ينفذ منها:

- متأكد؟

شعر علي جبران بالندم على استضافته ضابط شرطة صفيق لا يتورع عن استجوابه على مائدة الغداء:

- صدقني يا فندم ما بش حاجة، أنا قد قلت لك مرتي بتتوهم.

توقف الضابط سيف عن المضغ وحدج علي جبران بنظرة ثاقبة:

- مش معقول؟ أكيد في شي..

ارتجف خد علي جبران المتكور بالطعام الذي تحول مذاقه علقماً:

- ما هو قصدك يا فندم ؟ ما تشتي تقول؟

جاوبه الضابط سيف بثبات ونبرة صارمة:

- أشتي أعرف للمه طلبتوا الكلب البوليسي؟ هذا الطلب ما عا يجيش من فراغ.

تطلع علي جبران صوب الباب الموارب وقال بصوت خفيض:

- عندك حق، الذي حصل إن زوجتي بتقول إنها أبصرت واحد متخبي في الحديقة قبل يومين. عن نفسي ما أعتقدش إن هذا صحيح، لكن أنا مضطر أنفذ لها رغبتها، مشكلتها إنها

بتخلط أحياناً بين الحلم والحقيقة، بعض أحيان تتحاكى عن أحداث ما حصلتش مطلقاً إلا في عقلها فقط، كوابيسها الليلية بترهق أعصابها وتخليها قلقة متوترة على طول، يمكن من شهرين ازدادت مخاوفها وتضخمت إلى درجة اضطريت إني أدي ذيك الشيبة يحرس البيت، الدنيا أمان والناس في السلامة لكن ما نفعل؟ وساوس زوجتي واضطراب حالتها النفسيه أجبرتني على الاتصال بك واطلب منك كلب الحراسه، وانا خايف إن المرض يزيد عليها أكثر ويعجز الحارس والكلب عن توفير شعور الأمان لها وبعدها ألقى نفسي في مشكله أعظم من الأول واعجز عن السيطرة على مخاوفها.

تابعا الأكل بصمت برهة، ثم غامر الضابط سيف بطرح السؤال الذي ناور طويلاً لطرحه متشجعاً بمبادرة علي جبران الودية حينما انتزع قطعة من لحم فخذ الشاة وطوح بها أمامه:

- هل عندك نية تسلمها لمصحة عقلية؟

غص علي جبران باللقمة، فسكب له الضابط سيف ماءً وناوله الكأس، فشربه الأول دفعة واحدة، ثم قال بعد إطراقة طويلة:

- لا.

كان علي جبران مهتماً بمستقبل الصبي عمر ويود له التفوق على أقرانه، فلما حلت إجازة نصف السنة ألحقه بحلقة لتحفيظ القرآن الكريم بالمسجد المجاور لبيته، وأوصى إمام الجامع به خيراً.

في هذه الآونة اشتدت الأزمة السياسية بين الحزبين الحاكمين، وتصاعد التوتر بين الطرفين إلى درجة وضع جيشي الشطرين السابقين في حالة استنفار قصوى.

وازدادت سخونة المناخ السياسي مع تصاعد عمليات الاغتيال التي طاولت قيادات كبيرة في الحزب الاشتراكي، مما اضطر عدداً منهم إلى ترك العاصمة والنزوح إلى عدن.

كان علي جبران عضواً في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني، وصوتاً جسوراً ينافح عن الطبقات المسحوقة تحت قبة البرلمان، وعندما رحلت قيادات الحزب الاشتراكي إلى الجنوب عقب تصاعد موجة الاغتيالات، وجهت له قيادته تحذيراً من مغبة البقاء في صنعاء، إلا أنه لم يأبه لتحذيراتهم، وواصل حياته بصورة اعتيادية.

مركز العلاج بالقرآن الذائع الصيت أُغلق بسبب وفاة إحدى السيدات المترددات على المركز خنقاً على يد شيخ استخدم معها أقسى درجات العنف بغرض إخراج الجني من جسدها فأعانه الله وأخرج روحها أيضاً.

لذا بات الشيخ (هلال) المعالج القرآني المختص بحالة ثائرة يأتي خفية من الأجهزة الأمنية إلى منازل زبائنه، وكانت الأخيرة تحظى منه بساعة يومياً بين المغرب والعشاء بحضور زوجها علي جبران أحياناً أو الصغير عمر في أحايين أخرى.

ونتيجة لتدهور حالتها أكثر فأكثر وخوفه من أن تفشل وصفاته، فقد راح يستخدم قبضتيه لطرد الجني الطفل من رحمها، واضطروا إلى عقد الجلسات في حجرة عمر الضيقة بالقبو كي لا تصل صرخات ثائرة المروعة إلى آذان الجيران.

ثم تغيب علي جبران تماماً عن حضور الجلسات بسبب انشغاله الدائم في (لجنة الحوار) التي كانت تسعى إلى وقف تدهور الوضع السياسي في البلد وتهدئة الرؤوس الساخنة.

وحل الصبي عمر محله «مخرماً» إلا أن الشيخ هلال كان كثير

الطلبات ولا يكف عن إرساله إلى البقالة لشراء شتى الحاجيات.

وأما آخر تقليعاته العلاجية فكانت إعارته جنبيته الخاصة الثمينة لثائرة، مقترحاً عليها وصفة شعبية بقوله:

- الرازم مهما عظم جبروته وهوله ووحشيته لا يستطيع الصمود أمام الجنبية!

وطلب منها أن تضع جنبيته تحت وسادتها عند النوم لتمنع المس الشيطاني ونزغات العفاريت عنها.

وإزاء مبادرته لم تجد ثائرة مناصاً من أن تدفع له بسخاء رداً للجميل ولائتمانه لها على رمز وجاهته ورجولته.

وبعيداً عن الجو المكفهر داخل وخارج البيت تفتح الصبي عمر كالوردة اليانعة، قوامه رشيق وخصره دقيق، عيناه دعجاوان، غزير هدب العين، مقوس الحاجبين، وله وجه طويل بخد أسيل يشف عن خضرة العروق الفتية التي أكسبت بشرته البيضاء مسحة من اخضرار فاتح فأشبه زهرة الفل الطرية. شعره قصير ناعم، وأذناه كبيرتان متباعدتان عن رأسه، وسبب ذلك كما أشيع أنه سقط من درج بيتهم في القرية حين كان عمره أربع سنين فشده ملاك من أذنيه وأنزله على الأرض سالماً، ورأى هذا طائفة من الناس.

حقق عمر تقدماً سريعاً في حفظ جزءي عم وتبارك، ولاحظ إمام الجامع أن لعمر صوتاً شجياً في تجويد القرآن، فطلب منه أن يؤذن لصلاة الظهر، فاستحسن المصلون آذانه، فأوكل إليه إمام الجامع أذان صلاتي الظهر والعصر.

فرح عمر والناس بثقة إمام الجامع به دون سائر الصبيان، وصار يشعر بالزهو والغرور، ويتجنب اللهو مع أقرانه مقلداً الكبار في وقارهم واحتشامهم.

كان إمام الجامع رجلاً جاوز الثلاثين، يميل إلى البدانة، قوي البنيان كمقاتل ضرسته الحروب، يحلق شاربه ويطيل لحيته، ويسبل سماطته الحمراء على كتفيه، يده اليسرى مقطوعة من المعصم، ولهذه اليد المقطوعة قصة لم يكن يجد حرجاً في روايتها على مسامع مريديه إذا سألوه عنها.. فهو يقول عن نفسه أنه كان شاباً مستهتراً لا يصلي ولا يصوم ويمارس المعاصي والموبقات جهاراً، ويعيش حياة بوهيمية. وكان والده ميسور الحال فاشترى له سيارة جديدة، فأخذ يجول بها في شوارع المدينة بسرعة وطيش، وكانت عادته أن يدلي يده اليسرى من نافذة السيارة ويتركها مسترخية على الباب ليُفهم الفتيات أنه يقود سيارته بيد واحدة. وأحياناً كان يقترب بسيارته منهن مستخدماً يده الحرة لإلهاب أردافهن بضربات خاطفة تنتزع منهن صيحات الألم في بعض الأحيان!

وفي مرة فقد سيطرته على المقود واصطدم بسيارة قادمة من الاتجاه الآخر، ونجا من الحادث باستثناء يده التي انهرست بين حديد السيارتين. ويقول إنه عقب هذه الحادثة أدرك أن الله عاقبه على آثامه بقطع اليد التي كان يؤذي بها بنات الناس، فتاب إلى الله منذ ذلك الحين ونبذ المعاصي وصار ملتزماً.

ويوماً رأى عمر في بركة الماء التي تفصل بين الموضأ والمصلى، وقد شمّر بنطاله إلى أعلى فخذيه يطشطش بالماء على أترابه، فالتهم بعينيه بياض ساقيه ورشاقة فخذيه ونعومتهما، فقر هواه في سويداء قلبه.

وحاول الإمام «محمد الدخيل» مقاومة رغباته الدفينة بشراسة، وخاض في داخل نفسه نضالاً شاقاً كي لا يحيد عن الطريق القويم. لكنه كان يذوب وجداً وهياماً كلما رأى عمر جالساً في حضرته، ويصبح قلبه كورقة في مهب الريح، صوته يتحشرج، أصابعه ترتعش، لسانه يثقل، وعيناه تزيغان.

قلبه.. قلبه المأفون خانه، ضيّع أوامر الله وتعلق بما لا يجوز مجرد التفكير فيه. هو الذي كان يظن نفسه قد عوفي من محبة الصبيان، إلا أن طلة عمر الفاتنة قهرته، قوضت حصونه الإيمانية واحداً واحداً حتى أنهك تماماً. سيطرت عليه الرغبة وقلبت كيانه رأساً على عقب جارفة في طريقها كل عائق إلهي أو اجتماعي، لقد سبته مفاتن الصبي، أغرم بسحر عينيه الواسعتين، بصوته المنغّم المغنون، بنعومة بشرته وصفائها. وأمست لياليه مؤرقة تسيطر عليه خيالات فاحشة عن عمر مستظهراً حركات يديه وإشاراتهما، ابتسامته المحببة البهيجة، شفتيه الرقيقتين الحمراوين، أسنانه البيضاء كعقد اللؤلؤ، أنفه الأقنى الضيق المنخرين الذي ربما كان أجمل أنف وهبه الله لفتى من سنه.

وسمح لنفسه بأن يلتذ بفخذ عمر التي كانت تلتصق بفخذه في حلقة التحفيظ الدائرية، وأن يضغطها ويتمسح بها دون أن يلفت إليه انتباه أحد ولا حتى عمر نفسه. لأنه لا أحد يمكنه أن يتخيل مقدار الكهرباء التي كانت تسري في كل خلايا جسده من تلك الملامسات البريئة، أو أن يشك مجرد الشك في أن ذلك الرجل الجليل المتزمت الأخلاق كان يختلس متعة بطيئة فوارة بالأحاسيس الجنسية التي توازي في نشوتها ارتشاف الخمر، وأن المعلم القاعد بينهم متعرق الجبين والراحتين والفخذين ثمل من اللذة يوشك أن

يتصبب الملح على ملابسه.

وفي أحد صباحات الجمعة، بكّر عمر بالمجيء إلى المسجد، ومعه كيس فيه أغصان الريحان التي قطفها بنفسه من حديقة الفيلا ليوزعها على الذين سيجلسون في الصفوف الأولى، وهذه عادة علمه إياها سيده علي جبران الذي كان معروفاً عنه مواظبته على حضور خطبتي وصلاة الجمعة.

دخل المصلى فوجد الإمام «محمد الدخيل» وحيداً يقرأ القرآن في المحراب، اقترب منه، فأحس الأخير بمقدمه فقطع تلاوته، ووضع المصحف جانباً، سلّم عليه وصافحه ثم أهداه غصن ريحان مزهراً فواح الشذى، وجلس ملتصقاً به كما اعتاد أن يفعل في حلقة التحفيظ.

توافد أوائل المصلين إلى المسجد، وانشغلوا بتلاوة القرآن سراً وجهراً، فضجّ المكان بطنين شبيه بطنين خلية نحل.

وصل علي جبران وبحث بعينيه عن عمر فلم يجده فانتابه قلق خفيف، وسار متئد الخطى نحو الصف الأول في الصدر خلف المحراب مباشرة، وفرش شاله البني المذهّب وصلى ركعتي استقبال المسجد.

ومضى الوقت ولم يأت الإمام، وتشاغل الناس عن التلاوة بالنظر في ساعاتهم ومراقبة باب المصلى ترقباً لمجيء الإمام.
أرسلوا واحداً في طلبه إلى بيته، فعاد إليهم بعد ثلث ساعة بنبأ عجيب:

أخبر الرسول أن أهل بيت الإمام محمد الدخيل قالوا له إنه خرج من عندهم ضحى إلى المسجد ولا يمكن أن يكون إلا في المسجد!

تشوش الناس وغادر بعضهم إلى جوامع أخرى، وطلب البعض الآخر من المؤذن العجوز أن ينوب عن إمامه ويرتجل خطبة بدلاً عنه، ولكنه اعتذر وقال إنه ليس متفقهاً في الدين، واعتذر آخرون عن الخطابة، فاحتاروا وارتفع اللغط في المصلى. ومن دون أن يشاور أحداً صعد علي جبران إلى المنبر وسلّم على الناس بصوت جهوري حازم، فصمتوا ونظروا إليه مندهشين غير مصدقين ـ لأن المتشددين أشاعوا عنه أنه ماركسي ملحد وما صلاته وعبادته وتمسكه بشعائر الإسلام إلا بغرض كسب أصوات عوام الناس في الانتخابات ـ وأمر المؤذن أن يصدع بالأذان.

وخطب في الناس ـ الذين تكاثر عددهم حتى امتلأ الجامع عن آخره ـ ببيان واضح منددا بالصراع المنذر بأوخم العواقب بين الحزبين الحاكمين، وقال إن نذر الحرب الأهلية تخيم فوق سماء اليمن، وحذر سامعيه من الاشتراك في القتال، وذكّرهم بأن الاحتكام إلى السلاح محرم بين المسلمين، وأن القاتل والمقتول في النار كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم صلى بهم. وعقب الصلاة توافد المصلون للسلام عليه وعيونهم تعكس إعجابهم بجرأته في نقد الحكام واستحسانهم رأيه في عدم المشاركة في النزاع السياسي المحتدم.

وأسّر له رجل بسيط يشتغل عاملاً في بوفيه بكلمة مؤثرة، قال له إن وقوفه على المنبر نصف ساعة خرب كل الدعاية الخبيثة التي تعب المتشددون في حبكها ضده منذ ثلاثين عاماً.

لا شيء أسعد قلب علي جبران منذ سنوات مثلما أسعدته كلمات ذلك العامل الطيب، فعاد إلى بيته مزهواً منشرح البال.

وعلى سفرة الغداء لاحظ غياب عمر فسأل عنه، فقالت له الطباخة سعدية إنه نائم في غرفته بالقبو، وعلم منها أنه لم يدرك صلاة الجمعة.. فشتمه مستنكراً تقصيره، وعاوده مرة أخرى مزاجه الحاد النزق الميال للمشاجرة. وما إن جاءت ثائرة وأتت منه كلمة ومنها كلمة حتى نسي أمر العقوبة التي كان يرصدها لعمر، ودخل في مشاحنة مريعة مع حرمه تعتبر بحق الطبق الرئيس في كل وجباتهما.

امتلأت مكتبة «ملحمة السبعين يوماً» بالطلاب الصغار من الجنسين الذين كانوا يرتدون زياً مدرسياً موحداً ويحملون حقائب منتفخة بالكتب والدفاتر.

كان الوقت ظهراً، والشمس متوارية خلف قناع كثيف من الغيوم. وراحت معلمة الصف الابتدائي الأول تساعد طلبتها على شراء ما يحتاجون له من قرطاسية، وضحك منير في سره لأنها كانت تبدو كدجاجة مكتنزة يتبعها الصوص من ركن إلى ركن في جلبة ولغط وكأن المكتبة تحولت إلى خن للدجاج.

ودون برق أو رعد ينبئ بمقدمه هطل الغيث مصحوباً بالبرد، وفي غضون دقائق ارتفع منسوب المياه وتدفق على الأرصفة وقلع

الشجيرات المبثوثة في الجزر المستطيلة بين خطي الإسفلت، واقتحم الدكاكين الواطئة وأتلف قسماً من بضائعها، واعتصم المارة بالمصاطب العالية والمحلات المرتفعة عن مستوى الشارع، وكان من حسن حظ المدرسة المكتنزة والفصل (ب) الذي تشرف عليه أنهم حجزوا في مكان عالٍ لا يرقى إليه الماء لارتفاعه بمقدار نصف متر عن الرصيف الذي أصبح جزءاً من مجرى السيل السريع الجريان المنسكب من قمم وشعاب جبل «قربوس سام بن نوح».

انشغل الأطفال بالتفرج على الحنفية المفتوحة واللعب بحبات البرد، واستغلت المعلمة وقت الفراغ وسحبت تلميذة منكوشة الشعر يتيمة الأم وأجلستها على دولاب العرض، ومن حقيبتها الزرقاء أخرجت فرشاة شعر وبدأت في تمشيط وتضفير شعر التلميذة اليتيمة.

قال منير مازحاً وعيناه ترتويان من ملامح المعلمة التي لم تكن تضع نقاباً على وجهها الأسمر:

- صحيح يا زينب جا لك عريس؟

ضحكت زينب ورمته بنظرة فيها لوم خفي:

- أين هو هذا العريس؟ تعبت وانا منتظره له يجي!

أحنى منير رأسه كأنه يتقي ضربة وقال باسماً:

- يمكن جا وما حصلك في البيت!

ردت زينب ساخرة ويداها تعملان بنشاط في رأس تلميذتها:

- للمه؟ هو عريس والا موظف في الكهرباء جا للبيت يكشف على العداد!

ضحك منير رغم معرفته أنه كان المقصود بسخريتها اللاذعة:

- طيب في احتمال إن العريس مش عارف عنوان البيت؟

جاوبته زينب وقلبها يثب بين ضلوعها وحمرة الخجل تزهر في خديها:

- ما بش له عذر، هو ذا انا قد جيت لى عنده!!

تراجع منير بجذعه للوراء ووجهه يعكس دهشة مصطنعة، وإن كان قد ارتجف في أعماقه من صراحتها في البوح بحبها ورغبتها في الارتباط به.

كانت زينب فتاة في السادسة والعشرين، تبدو جميلة من أول نظرة، وأما إذا تأملتها العين على مهل فإنها تتجلى عن جمال آسر، وعذوبة لا توصف، وإن وجهها ليبدو عادياً تماماً للعابر، لكن الإمعان فيه يجعلنا نؤمن بوجود أشياء سحرية في هذا الكون.

وجهها الفتان لوحة فنية أنجزها فنان عبقري على مهل في بضع سنين، فيحتاج ذواقة الجمال إلى قضاء الساعات الطوال ليفهم من أين يتفتق هذا الحسن الأخاذ.

انقطع حبل الكلام بعد تلك المكاشفة التي فاجأتهما معاً من دون قصد. انصرفت التلميذة الصغيرة مسرورة وهي تخبط بضفيرتيها على وجهها ولحقت بأترابها تشاركهم صحيات الفرح بهدير السيل.

قال منير متجنباً النظر إليها وبصره معلق بالسماء المفتوحة على الأرض:

- تتذكري وعاد احنا جهال نلعب مع بعض في الحارة؟

ارتسمت تكشيرة مصطنعة على محيا زينب:
- طبعاً، كنت أكبر مني بشهرين ودايماً تضربني من غير سبب.

ابتسم منير بخفر:
- عادك آخذة على خاطرك؟
- ما عاد نقول؟ الله يسامحك وبس.

رفع منير إصبعه في الهواء متذكراً:
- آه ذلحين تذكرت للمه كنت اضربك وعاد احنا جهال.

انتاب زينب الفضول، فكرت بأنها على أعتاب معرفة سر من أسرار طفولتها، لأنها في تلك السن لم تكن تكره أحداً من أقرانها قدر كراهيتها لمنير ابن جيرانهم الشقي، وهي التي لا تدري كيف انقلب بها الحال فغدت لا أحب على قلبها منه.

قال منير وقد أخفض رأسه بين كتفيه وأشار إليها بيده متجافياً عنها بحركة مسرحية هزلية:

- مش كنا زمان نلعب في الحارة عريس وعروسة؟
شردت زينب بفكرها في ذكرياتها البعيدة وجاوبته بصوت هامس:
- أيوه.
- طيب بتتذكري إن انتي دايماً كنتي بتختاري أي واحد عريس إلا أنا ؟ وإذا أنا صممت آخذك كنتي بتبكي وتراجميني بالحجار.. صح أو ماشي؟

تضرج وجه زينب بالحمرة حتى أذنيها فرفعت كفها وراحت تمسح

قصبة أنفها لتحجب انفعالاتها:

- صح.

ضحك منير جذلاً وعيناه تتسلقان مفرق شعرها الفاحم السواد وقد انحسر خمارها البرتقالي المشجر إلى هامتها:

- دريتي ذلحين للمه كنت أنا أضربك؟ من سب تقعي مره سوا!

حاولت زينب أن تخبطه بدفتر التحضير على رأسه، ولكنه أفلت منها فقالت بغنج:

- هيه حاسب، هو ما كانش زواج من صدق!!

انحسر الماء عن رصيف الشارع فأصبح السير ممكناً، والشمس شقت بقوة الذراع فتحة بين السحب الركامية وأرسلت أشعتها الذهبية، فاطمأن تلامذة الصف الأول الابتدائي (ب) إلى انقشاع العاصفة.

خرجوا من المكتبة عائدين إلى منازلهم وفي معيتهم معلمتهم المحبوبة صوب الجهة التي انتصب فوقها قوس قزح سامق القامة زاهي الألوان.

استراحت الشمس في الأفق الشرقي ولم تعبأ بافتعال البعد فبدت قريبة وكأنها تدلي قدميها لتغسلهما بغبار الأرض.

خرجت زينب من بيت عائلتها المتواضع في أطراف الحارة، وروائح البخور العدني تفوح من ملابسها المغطاة ببالطو خشن كستنائي اللون، ومن دون أن تشعر كانت العصافير ترافقها من زقاق لزقاق وتصدح بزقزقة مرحة متنوعة الطبقات لتسليتها طيلة الطريق الذي كانت تقطعه إلى المدرسة راجلة توفيراً لأجرة المواصلات.

في زقاق خال من المارة رأت الشاب المشاغب (كبش) جالساً على حجر يدخن سيجارة وبصره مثبت عليها.

مرت بجواره وبصرها مصوب على الأرض فإذا به يثب واقفاً

ويمسكها من عضدها منادياً بصوت مبحوح:
- زينب.

وقفت ملتفتة إليه وقد هالها احمرار عينيه كأنهما داميتان:
- ما هو؟ ما تشتي؟

قال كبش لاعقاً شفتيه إذ رأى صدرها النافر المثقل بالثمار:
- اشتي منك تجي معي لى البيت تقريني، أنا محتاج دروس خصوصية!

نهرته بقسوة وتباعدت عنه وعن يده التي تتحسس جسدها:
- امشي من هانا يا أخبل.

أرادت زينب أن تشتد في مشيتها، فشعرت بقدميها تصطكان ببعضهما فلعنت في سرها جهازها العصبي الضعيف.

أخرج كبش من وراء ظهره سكيناً وسبقها قاطعاً عليها الطريق:
- جي معي لى البيت والا عاد اشوه لك وجهك الحالي بتيه السكين.

أسقط في يد زينب ولم تدر ما تفعل إزاء تهديده، وأخذ يهوش بالسكين في وجهها حتى حاصرها وأجبرها على الالتصاق بجدار أحد البيوت.

شمت زينب رائحة خمر قوية تنبعث من فم كبش، فقالت له بلهجة باكية وقد اغرورقت عيناها بالدموع من شدة الخوف:

- أوبه تتهور يا كبش.. أنت سكران، حرام عليك، خليني في حالي.

ابتسم كبش بنصف فمه وربت بصفحة السكين على خدها قائلاً والكلمات تخرج من فمه ثقيلة:
- للمه انتي خايفه؟ هي كلها نص ساعه وتسيري لش بعدها للمدرسة.

وخزها بالسكين في نهدها:
- هيا تحركي، امشي تجاهي.

ندت عن زينب صرخة فزع أكثر مما هي صرخة آلم ورفضت التزحزح عن مكانها، وبدأت تبكي والدموع تنهمر كأنها حنفية مياه مفتوحة.

من نافذة بالطبقة الثانية أطل كهل ضخم الرأس مُعتم بعمامة سوداء قائلاً:
- هيه.. ما به هانا؟

رفعت زينب رأسها ونظرت إليه مستغيثة به وقد جأرت بالعويل:
- عم عياش إلحقني.

لحظ عياش السكين التي بيد كبش ففهم الموقف وصرخ بصوت أجش مخيف كالرعد:
- كبش يا رجل الكلب راعي، والله لأكسر لك عظامك.
أغلق عياش النافذة بعنف، فطارت السكرة من رأس كبش وعاد إليه

عقله مدركاً أنه في خطر حقيقي، وشعر بحقد شديد على زينب فقرب السكين مهدداً بتمزيق خدها كما تخرّط البصلة، وأغمضت الأخيرة عينيها وهي تكز على أسنانها مستسلمة لمصيرها الأسود. نقّل كبش بصره بين باب بيت عياش وخد زينب مفكراً بسرعة في العواقب، وفي النهاية قر قراره على الفرار.

سمعت زينب وقع قدميه المبتعدتين ففتحت عينيها غير مصدقة وتنفست الصعداء شاكرة الله على سلامتها من كل مكروه.

فُتح باب البيت وخرج منه رجل كهل قوي البنيان أشبه بشجرة سدر، يحمل في يده هراوة غليظة وعيناه تقدحان بالشرر:

- أين جا كبش؟

تحسست زينب خدها وكأنها غير مصدقة أن كبشاً لم يمسه:

- هرب يا عم عياش.

تلفت عياش وهو متحفز لملاحقة الهارب:

- والله لأكسر له راسه بهذا الصميل، من أين هرب؟

أصلحت زينب من هندامها وفكرت بأن من الأفضل لها أن تنتهي المشكلة عند هذا الحد:

- هذا ربح يا عم عياش ما عاد تقدرش تلحقه.

هدأته كلماتها فاسترخت عضلاته المتوترة:

- ما له هذا النجس فعل هكذا؟

ردت زينب بصوت خفيض وهي تحمد الله أن سكان الزقاق لم

يلتمّوا حولها:

- أظن يا عم عياش إنه سكران مش داري بنفسه.

أنزل عياش هراوته وزفر بارتياح:

- لعنة الله عليه، رفع لي الضغط، الله لا سامحه.

قالت زينب وهي تنظر في ساعتها مدركة أنها قد خسرت دقائق ثمينة:

- لا تعصّب نفسك يا عم عياش، الحمد لله ما حصل شي يستاهل الزعل.

فُتح الباب مرة أخرى وخرجت منه شابة طويلة القامة، ناحلة العود، قمحاوية البشرة، متوسطة الجمال، في مشيتها وحركاتها جلافة الرجال، ترتدي بالطو أسود يخفي تحته ملابس التمريض البيضاء، منقبة الوجه، وتحمل في يدها حقيبة جلدية عريضة منتفخة بالأغراض. قالت مندهشة من وقوفهما وهما في حالة توتر ظاهرة:

- صباح الخير يا به.. صباح الخير يا زينب.

ردا عليها تحية الصباح، فاقتربت منهما مستفسرة:

- خير يا به، ما معك بزيت الصميل على وجه الصبح؟
- هذا الولد الفاتر كبش ما يستحيش على نفسه، رفع السكين بوجه الأستاذة زينب وكان يشتي يعتدي عليها، وأينه؟ قدام باب بيتي!

دب الهلع في روع ابنة عياش:

- صدق يا زينب ؟

- نعم، صورته شرب خمر خيرات، لكن الله بعث لي بعمي عياش أنقذني منه.

قالت ابنة عياش وقد استبد بها الغيظ:
- هذا المخلوق من زمان وانا ما ارتاح له، حتى شكله غلط، الله يعافينا، أحس إنه مدلوز !

تأهبت زينب لمواصلة مشوارها الطويل مصافحة عياش وابنته:
- شكراً لك يا عم عياش، يالله إلى اللقاء يا أروى.

خبط عياش بهراوته على الأرض قائلاً:
- لا لا، ما يمكن تسيري وحدك، عاد أرافقك أنا وأروى لى باب المدرسة.

تلألأت ابتسامة أنارت وجه زينب الشاحب:
- ما بش داعي يا عم عياش، أنا مش طفله صغيرة.

قالت أروى وهي تشبك ذراعها في ذراع زينب:
- اسمعي الكلام وامشي معانا هيا، عا نوصلك على الأقل لى الشارع العام.

مشى الثلاثة واجمين في البداية، وكسرت زينب جدار الصمت بسؤالها عياش عن أحوال قطيع أغنامه التي يربيها في الطبقة الأرضية، فانحلت عقدة لسانه وراح يثرثر طيلة الطريق عن قطيعه وبالأخص غنمته الشهباء الحبلى ميمونة، واصفاً بإسهاب جودة نسلها وغزارة لبنها، وترقبه موعد مخاضها على أحر من الجمر.

دوّى أذان صلاة الظهر من مساجد متفرقة، وكانت الشمس تلهب الرؤوس المكشوفة بأشعتها الحارة، والغبار الملوث بفضلات المدينة ينشط في حت الوجوه وتعريتها من بهائها وروائها.

بخطى مترنحة مشى منير حاملاً كفه اليمنى النازفة بالدم قاصداً الوحدة الصحية. كان يشعر بدوخة خفيفة جراء الألم الفظيع المنبعث من جروحه المفتوحة، ومر بمسجد كان المصلون يتوافدون إليه، وكان من بينهم شاب مثقف من متابعي مقالاته في الصحف وأبصره يبتسم متشفياً.

رأى منير عند باب الوحدة الصحية سيارة جيب شرطة واقفة وبداخلها سائق باللباس العسكري. وبعد قليل خرج من الوحدة

الصحية شرطيان، أحدهما يلف جبيرة حول ذراعه اليمنى موصولة بشاش أبيض إلى عنقه، صعدا إلى المقعد الخلفي، ومن ثم بارحت سيارة الشرطة المكان.

اتجه إلى عنبر الممرضة «أروى» التي كانت تربطه بها علاقة صداقة وثيقة، كونها زبونة دائمة لمكتبته وتتابع بشغف مجلات كثيرة. نقّت أروى الجروح بعناية من شطف الزجاج، ثم غسلتها بمطهر له رائحة نفاذة منعشة، ولفت حول أصابعه قطناً وشاشاً أبيض.

كانت أروى تبدو بهية في روب التمريض الأبيض ـ كانت تخلع البالطو الأسود وتسفر عن وجهها حالما تصل إلى مقر عملها ـ فبدت في عيني منير حورية هبطت من الجنة ليس فيها شيء من نقائص هذا العالم، وفاكهة يحدس بوجودها البشر من دون أن ينتبهوا كم هي قريبة منهم.

قالت أروى ووجهها يتلألأ فرحاً بما قامت به:

- قل لي كيف جرحت يدك؟

جاوبها منير وحواسه تستعيد رقة أناملها ولطافتها:

- الحاج زبطان جا للمكتبة ومعه صميل أطول منه وقام يكسر زجاج واجهة المكتبة فحاولت امنعه ومديت يدي على الزجاج قلت يمكن يتراجع فما دريت إلا والزجاج يتساقط فوق يدي والدم ينزف منها.

قالت أروى ويدها تلعب بقلادة ذهبية أنيقة تزين جيدها المتعرق:

- ولمه الحاج زبطان كسر الزجاج؟

رد منير متأوهاً:

- أنا نشرت مقالة في صحيفة يسارية شرشحت فيها بفقهاء أشرطة الكاسيت وقلت عنهم أنهم يروجوا لثقافة هابطة سطحية ولا هم لهم إلا تجهيل الناس وتخبيلهم! وأظن إن به واحد طيب قوي قرا المقالة ونقلها مشوهة للحاج زبطان الأمي.

قالت أروى وهي تحجب ضحكتها براحة يدها متوهمة أن أسنانها العريضة قبيحة الشكل وتعطيها مظهر بقرة مجترة رغم أن وهمها هذا لم يكن صحيحاً:

- باهر إنه كسر الزجاج وبس وما كسر لك أضلاعك!

قال منير وقد فتنه الزغب الخفيف فوق شفتها العليا المقوسة كتويج زهرة:

- الصدق أنا لا ألومه.. تخيلي إنسان خرج من أدغال أفريقيا وهبط فجأة في مطار أورلي بباريس. من الطبيعي إنه تكون لهذا الإنسان ردة فعل سلبية عنيفة مضادة للحضارة. لأن الإنسان بطبعه يكره الأشياء الجديدة ويقاومها باعتبارها خطراً على ما ألف من عادات قديمة. وغالباً يكون مفهومه عن الخير والشر ساذجاً وبسيطاً.. فما يعرفه هو الخير وما يجهله هو الشر!

قالت أروى وصورته كعريس لها تضغط على مخيلتها:

- تشتي رأيي؟ ما أظن إن التحريض عليك كان بسبب المقالة. أظن إنه بسبب الجو السياسي المتكهرب هذه الأيام. ويمكن

الجماعة حسنبوك مصطف مع الطرف المعادي لهم فحبوا يوجهوا لك رسالة تحذير.

سهم منير بفكره وغاص في صمت قصير، ثم قال بصوت أجش وثمة غضون تبرز في منتصف جبهته:

- أبسرت وانا جاي عسكري خرج من هانا ويده مجبرة. ما قصته؟
- آه، أنا السبب في كسر يده!
- انتي.. كيف؟
- اليوم الصباح تعرض ذيك الولد كبش لجارتنا في الحارة زينب وهددها بالسكين!

صعق الخبر منيراً وأحس بتيار كهربائي يسري في عموده الفقري:
- زينب المدرسة؟

تابعت أروى وأنفاسها تتهدج:
- نعم، وكان يشتي يجرها بالقوة لى بيته، لكن والدي خرج له في الوقت المناسب وطرده.

دب القلق في روح منير فبدت حركاته عصبية:
- وزينب ما وقع عليها؟

ردت أروى بلهجة فاترة وهي تشعر بالغيرة من لهفته على زينب:
- ولا شي.

تراخت ملامح منير المشدودة وتراجع بظهره مستنداً إلى مسند الكرسي:

- الحمدلله.

لاحظ منير انكماش أروى المفاجئ وأنها قد زوت ما بين حاجبيها وكفت عن الكلام، فتابع بلهجة ودية:

- انتي اللي بلغتي عن كبش؟
- كان ضروري نوقفه عند حده، لكن ما نفعل؟ العسكر الخضعان ساروا لى بيته يشتوا يقبضوا عليه فلبجهم وهرب!

ابتسم منير لطرافة ما حدث للعسكر على يد كبش:

- معقول ؟ كبش يعمل هذي العمايل!

قالت أروى وثمة خوف يرمي بظله على سحنتها:

- قال لي العسكري إنه خدعهم. خرج من بيته عادي وسلم نفسه لهم ولما وصلوا عند السيارة قلب عليهم وقام يضارب وبعدها هرب.. وعاده لى ذلحين هارب!

ضحك منير من طريقة سردها لمغامرات كبش وما لمحه من هلع في عينيها:

- كبش هذا مثل الادمام يجي له موسم يتهيج فيه فيخرج يدور ولا قد انتهى الموسم حقه رجع يتخبا في بيته بقية السنة.

جارته أروى في الضحك بغير نفس لآن ذكر كبش قد أغمها:

- أسأل الله إن موسم السنة هذه يمر على خير!

وقف منير متأهباً للخروج فبادرته أروى بالسؤال لكأنما تحاول استبقاءه:
- هاه كيف تحس يدك؟

مرر منير راحة يده اليسرى على أنامله اليمنى الملفوفة كلها بالشاش:
- أحس إنها شفيت. أنا متأكد إن أصابعك فيها سر لطيف يشفي الجروح!

احمرّ وجه أروى خجلاً وازداد خفقان قلبها:
- هذا الكلام استهزاء والا ما هو؟

قال منير وهو يتمنى في سره لو يمكنه أن يريح رأسه المضطرب بالمشاكل على حجرها وينام ملء جفونه:
- لا أنا لا أستهزئ.. إنتي فعلاً فيك إشراقة من عالم النور. إنتي يدك نفسها بلسم لجروح الجسد والروح. يمكن الملائكة لمستك في طفولتك!

أشاحت أروى بوجهها عنه حياءً، وقالت بصوت مختلج مرتبك:
- أنت كلامك والله أخطر من سكاكين كبش!
ضحك منير بانتشاء وقال مودعاً:
- أشوفك على خير.. وشكراً لك على لمساتك الشافية!

خرج بخطوات واسعة وصدره يعلو ويهبط من فرط الابتهاج، والتصقت أروى بالنافذة تتابعه وتملأ عينيها منه حتى غاب في دوامة من غبار.

كان الدوام قد انتهى وجلّ العاملين قد غادروا عائدين إلى منازلهم،

ولم يبق سوى الحارس العجوز الذي كان يتحرك في الممر بعصبية منتظراً خروجها بفارغ الصبر.

ارتدت البالطو على عجل ولملمت أغراضها البسيطة في حقيبتها الجلدية، ثم خرجت إلى الممر وألقت تحية الوداع على الحارس العابس الوجه، إلا أن الأخير لم يجاوبها إطلاقاً، وشيعها إلى الباب الخارجي للوحدة الصحية متقوساً كالقنفذ، وما أن لامست قدماها أرض الشارع حتى صفق الباب خلفها بعنف أثار ذعرها وسخطها.

فكرت أن تصرفه العدائي نحوها لم يكن له ما يبرره، ثم خطر ببالها أن الحارس العجوز ربما يكون قد تنصت عليها عقب خلو الوحدة الصحية من الموظفين ولم يرق له تودد منير إليها.. صعدت الباص وقد أفترت شفتاها عن ابتسامة عذبة، فقد أدركت بحدس الأنثى أن الحارس العجوز يغار عليها من أي شاب يتقرّب منها، وأن حديثها العفوي مع منير قد أنزل به آلاماً نفسية مبرحة.

وصلت إلى مدخل الحارة فشاهدت أربع شاحنات متروسة بحمولاتها المغطاة بطرابيل سميكة زرقاء، وقد تجمهر حواليها عشرات من أطفال الحارة الفضوليين الذين كانوا يخمنون جزافاً حمولة كل شاحنة.

لفت انتباهها أن الشاحنات كلها جديدة وتحمل لوحات دولة خليجية، فانتابتها رغبة طفولية في التسلق لاستكشاف تلك الأشياء الآتية من بلاد الثراء الأسطوري والمخبأة تحت الطرابيل.

كانت الشمس ترسل أشعتها القوية دون أن تجد غيمة تردعها،

والريح الساخنة تسف الغبار وتصفع به الوجوه، والناس يحتمون بالجدران ويسيرون في ظلها الشحيح هرباً من مجابهة تحالف الشمس والغبار.

كانت أروى التي أنهكها الظمأ تحث الخطى طمعاً في كوب من الماء البارد، فلما وصلت إلى الزقاق الذي تعيش فيه لاحظت أن باب منزلهم قد فتحت ضلفتاه على آخرهما، وثمة حركة غير عادية ورجال يتوافدون، فسارت متمهلة وقلبها يخفق بسرعة توجساً من وقوع مصيبة ما، وبجوار الباب رأت بقعة دم سوداء متخثرة فاستدلت أن والدها قد ذبح كبشاً، وأن هذا لا يحدث إلا لمقدم ضيف عزيز، فأطلقت زفرة ارتياح واسترخت أعصابها.

صعدت إلى الطبقة الثانية فرأت بسطة باب الديوان مكتظة بأحذية الرجال، ولغط أحاديثهم الرنانة وكركراتهم تهز جدران البيت، وتجعل الهواء المنبعث من جهتهم دبقاً يمكن الاغتراف منه، وشعرت برغبة شديدة في التلصص عليهم ورؤية وجوههم وأن تعرفهم واحداً واحدا.

ثم سمعت وقع أقدام تصعد الدرج فسارعت بالارتقاء إلى السطح، فوجدت أمها كما توقعت في «الديمة» مشغولة حتى أذنيها بتحضير وليمة الغداء والعرق يتصبب منها، وأخبرتها وهي تتنفس باضطراب من الانفعال والقلق أن أبناء عمها المغتربين في الخليج قد وصلوا ضحى اليوم.

هبطت إلى غرفتها في الطبقة الثالثة وبدلت ملابسها، وحاولت تذكر ملامح أبناء عمها الأربعة فلم تفلح، لأنها لم ترهم منذ عشر

سنوات، وحتى قبل أن يهاجروا لم تلتق بهم سوى مرات قليلة عندما كان والدها يزور قريته في العيد الكبير.

رقت إلى الديمة لتساعد أمها، ونسيت تماماً أنها عطشى، فقد كانت تحس في داخلها بنشوة غامضة، ورغم أنها عادت من عملها مرهقة، إلا أنها شعرت بطاقة لا تعرف مصدرها تنعش بدنها وتمده بالنشاط والحيوية.

شمّرت عن ساعديها القويين وأخذت تخضب الحلبة بسرعة ومهارة. قالت وقلبها يرفرف في قفصها الصدري:

- يا مه للمه رجعوا عيال عمي من الخليج؟

قالت الأم وابتسامة هناء تطوف بشفتيها لأن فضول ابنتها كان نصف الطريق نحو تحقيق الأمنية:

- رجعوا يشتوا يستقروا في بلدهم ويتزوجوا ويكونوا لهم أسر.

قالت أروى وخيالها يشطح بتخيل ثوب الزفاف الأبيض:

- هاه، إذاً يمكن القاطرات اللي أبسرتها في أول الحاره هي حقهم؟

أومأت الأم برأسها ورمتها بنظرة ماكرة ولسان حالها يقول: «قدك داريه بكل شي وعادك تسألي!».

قالت أروى وهي تتذوق الحلبة وتحاول جاهدة التكتم على لهفتها:

- لكن للمه ما جوا إلا عندنا وما ساروا عند حد ثاني؟

ضحكت الأم بغنج وقالت بلهجة متخابثة:

- الله اعلم ما يشتوا!

احمرت أذنا أروى من قرصة أمها وأدركت أنها كتاب مفتوح أمامها.

سمعتا وقع أقدام تصعد الدرج، فخمنتا أنه عياش نهد إلى الديمة لتذوق لحم الخروف والحكم على درجة نضجه، فظلتا تثرثران دون أن ترفعا رأسيهما عن القدور حتى نسيتا أمر القادم.

سمعت أروى حمامة تهدل كأنها جوارها، فالتفتت إلى المدخل فرأت رجلاً وسيماً حليق الوجه متوسط القامة قوي البنية ينظر إليها مبتسما، وفوق كتفه حطت حمامة بيضاء ذات منقار أحمر.

فزعت أروى للوهلة الأولى وسترت في لمح البرق ساقيها المكشوفتين ـ كانت جالسة على الأرض مستندة بظهرها إلى الجدار ورجلاها ممدودتان على راحتهما وفي حجرها قدر الحلبة ـ ثم تلملمت على نفسها وحولت وجهها إلى الجهة الأخرى كي لا يراه الغريب.

انتبهت الأم إلى ما يحدث فقالت وهي تتبادل ابتسامة متواطئة مع الآخر:

- وو.. أروى هذا ابن عمك الحدي.. قومي سلمي عليه.

دخل الحدي إلى الديمة فطارت الحمامة مبتعدة وقال بلهجة متفكهة:

- ما بش داعي يا عمه حسنى، هي يدها في الحلبه وانا منعوني الدكاتره من الحلبه بتاتاً.

فتحت أروى فمها مستنكرة رفضه الجلف مصافحتها، وبدا أنها غير مستوعبة لمراميه. وسارعت الأم حسنى بالرد وهي الخبيرة بأسلوب عائلتها المتوارث منذ قرون في الغزل والتشبيب:

- وللمه منعوك الدكاتره من الحلبه؟

لعق الحدي إصبعه من قدر الحلبة وقال متمطعاً بالطعم اللذيذ:

- قالوا لي انت عندك مشكله انك إذا أكلت حلبه فلازم تعشق اللي خضبتها!

اتسعت حدقتا أروى دهشة، وقالت الأم حسنى وهي لا تكف عن تقطيع السلطة:

- هذا مرض خطير، عا يحنبك!

أحست أروى بتغامزهما وفهمت أنها المقصودة، فدافعت عن نفسها كما تفعل أية أنثى شرقية يفترض فيها أن تغالط في التعبير عن مشاعرها الحقيقية:

- حتى ولو كان الذي خضب الحلبه واحد رجال؟؟

بهت الحدي في البداية من جوابها الساخر، ثم هز رأسه موافقاً وغرق في كركرة جذلى هزت أركان الديمة الأربعة. وما كاد يثب لرشده حتى سمع إخوته ينادونه من الأسفل فودعهما وعاد من حيث جاء.

قالت الأم حسنى وهي تقلب اللحم في بحر المرق وقد اكتسب صوتها تلك النغمة الباترة:

- الحدي طلبك من والدك.

أغضت أروى حياءً ولم تعلق، وفكرت في نفسها بأن الرجل الذي طلبها يفوق بدرجة أو درجتين الصورة التي رسمتها في مخيلتها عن فارس الأحلام.

وفي اليوم التالي تقدم «الغشي» لخطبتها، وهو بنفس درجة قرابة الحدي إلا أنه من عم آخر. وقد حال فقره وأميته زمناً طويلاً دون أن يفكر في الارتباط بابنة عمه المتعلمة، إلا أن مقدم أبناء عمومته الموسرين من الخليج حرك أسوأ ما فيه من مشاعر الحسد والغيرة، فأراد أن يفوز بـ«درة» العائلة دوناً عن بقية أبناء عمومته، لكن عياش خيب آماله بكلمة:

- قد خُطبت!

فعاد الأول إلى مسقط رأسه في القرية وصدره يغلي بالشر.

كانت الساعة المثمنة الأضلاع تشير إلى الحادية عشرة مساء. وضعت ثائرة حقيبة جلدية حمراء كبيرة الحجم على سرير النوم، وفتحت دولاب الملابس وأخذت تختار ما تراه ضرورياً وتحشوه في جوف الحقيبة.

مر بذهنها الشيخ «هلال» الذي سيفاجأ برحيلها حين يأتي في موعده المعتاد مساء الغد. تذكرت موقفاً سخيفاً حدث لها معه.. يوم ظنت أنها تروي له طرفة تضحك بها سنه حين أخبرته أن العصافير تغادر نافذتها وتكف عن الزقزقة عندما تشغل شريط الأدعية الذي أعطاه لها وكله زجر ووعيد وتهديد بصوته المقرقع النشاز.. وأنه كان يحصل العكس عندما تضع في المسجلة شريطاً موسيقياً فتتدافع العصافير على نافذتها وتزقزق بانتشاء وحبور وكأنها

تجاري صدح الآلات الموسيقية وأنغامها، ففوجئت باكفهرار سحنة الشيخ هلال وانتهارها بشدة ثم فجر في وجهها حكمه الرهيب: «العصافير كافرة!».

استعادت ذاكرتها ما حدث في اليومين الأخيرين، وكيف تمكن الشيخ من تعريتها بيسر وسهولة وكأنها زوجته.. فتح علي جبران باب غرفة النوم، ووقف قابضاً على أكرة الباب مستغرباً:

- ثايره، ما بتفعلي؟

ردت ثائرة وقد انزعجت لانقطاع خيط ذكرياتها:

- مثل ما بتبسر، ألف ملابسي.

وقف علي جبران بقربها ساخطاً:

- له تلفي ملابسك وعاد أنا ما قد طلقتك؟

قالت ثائرة محاولة التماسك كي لا تجتاحها مشاعر الشفقة على زوجها الكهل:

- أشتي أسافر لى عدن، أجلس لي في فندق على البحر كم يوم حتى تهدأ أعصابي.

وضع علي جبران يده على جبينه وقد انخسف وجهه:

- ما هو هذا الخبر؟ ما عيقولوا عني الناس لوما يدروا إن زوجتي سافرت لى عدن وحدها، وفينه، في فندق على البلاج!

تحركت ثائرة نحو وسادتها وأخرجت من تحتها جنبية الشيخ هلال وظلت مترددة بشأن أخذها أو تركها ثم حسمت أمرها ورمت بها في زاوية مهملة بدولاب الملابس. قالت وفي رأسها ضباب يعميها

عن الرؤية:

- طز في الناس، المهم أخرج من هذه المدينه، أنا تعبت، أف، ما عادنيش قادره اتنفس، حاسة إن أنا عاد اختنق هانا.

جلس علي جبران على طرف السرير وفكر أن يتصرف بحكمة لمنعها من السفر:

- ثايره حبيبتي، أنا مقدر الهم والغم الذي انتي فيه، لكن، انتي دارية كم الساعة ذلحين؟

التفتت ثائرة إلى الساعة المثمنة الأضلاع فألفتها تشير إلى الحادية عشرة والثلث، فتباطأت حركتها بعض الشيء وفترت.

أزاح علي جبران الستارة الحمراء المخملية ونظر من خلال زجاج النافذة إلى المدينة المستكينة في أحضان الليل قائلاً:

- لو خرجت في هذي الساع فما أظن إنك عا تحصلي سيارة مسافرة لى عدن، صلي على النبي، الناس رقدوا والشوارع فاضية من السيارات.

توقفت ثائرة كلياً عن جمع ملابسها وبدت على ملامحها الحيرة والاضطراب. طوقها علي جبران بذراعيه وقبلها في فمها ليهدأ روعها:

- نامي الليله هانا وغدوة الصباح تقدري تسافري على راحتك لى المكان الذي تشتيه، اتفقنا؟

رفع علي جبران قبضته في الهواء سعيداً بموافقتها على البقاء عنده حتى الصباح، وبخفة وكأنه شاب عشريني فتي حمل حقيبتها بيد واحدة وألقاها جانباً، وأطلق أكبر زفرة ارتياح في حياته ثم قال

بصوت حاول جهد استطاعته جعله ناعماً:

- إذا كذبت علي وقلت لي إنك عا تزوري واحدة قريبتك في عدن وتجلسي عندها فأنا عاد اصدقك، ما رأيك؟

عانقته ثائرة وهي تكاد تطير من الفرح:

- الله كم أنا أحبك يا علي ! أوعدك ما تشرق الشمس إلا وأنا قد اخترعت لي عمة أو خالة في عدن، ويمكن تطلع في راسي واقول إنها بتسأل عن صحتك وتشتي تبسرك وتتعرف عليك!

ضحكا من أعماقهما، وطوح بها علي جبران على سرير النوم وسبحا في قبلة ممتعة لم يعهدا مثيلاً لحلاوتها منذ دهور طويلة.

نامت ثائرة على جنبها مواجهة النافذة المفتوحة، وقد أورقت في شفتيها ابتسامة رائقة.

ورأت حلماً عجيباً.. رأت نفسها في باص تثرثر وتضحك مع زملائها في قسم التاريخ، ورأت أنهم كانوا متجهين صوب مأرب في رحلة علمية، وبعد قليل وصلوا إلى المعبد السبئي الأشهر المسمى «عرش بلقيس» وأخذوا يحفرون الأرض بحثاً عن الآثار السبئية القديمة، وجاد عليها حظها الحسن بالعثور على تمثال سبئي طوله ذراع تقريباً، آية في الإبداع، منحوت من المرمر الأخضر لم يمسسه ضرر، وأخذت تتحسسه بإعجاب، فلما وصلت أصابعها إلى خاصرته شعرت بشمعته تنبض، فارتعدت من الخوف، وإذا بعيني التمثال تشعان ببريق حي، وجسده يتحرر من جموديته ويصير شاباً

فائق الوسامة من لحم ودم، احتضنها بين ذراعيه في شوق عارم، وامتزجا معاً كالوردة ورائحتها، وتحلق حولها دكاترة القسم وزملاؤها الطلاب الذين صفقوا طويلاً لنجاحها الخارق في إحياء التمثال وبعثه للحياة، وعندما آلت الشمس للغروب جمعوا أدواتهم وصعدوا الباص عائدين إلى المدينة، وفي منتصف الطريق توقفوا عند نقطة تفتيش عسكرية، ولمح العسكر التمثال المرمري، وبعد شد وجذب، صادروا التمثال وحذروا الدكاترة والطلاب من مغبة التنقيب عن الآثار من دون تصريح مسبق من السلطات.

فتحت عينيها ببطء وخمول، وبللت شفتيها الجافتين بلسانها، فتسرب إلى فمها طعم حلو من آثار الحلم. نظرت إلى النافذة فلاحظت بانزعاج أنها لم تنم إلا قليلاً، لأن الظلام ما زال جاثماً على الدنيا.

تذكرت التمثال السبئي المرمري البديع التكوين الذي أهداه لها زوجها علي جبران ليلة عرسهما.. كان هدية ثمينة جداً فرحت بها غاية الفرح، واتخذت الرجل السبئي سلوتها في الليالي بجوار سرير نومها على الكومدينو مدة عامين ونصف.

ويوماً زارتها صديقة حميمة متدينة ونصحتها بإخراج التمثال من البيت، لأن الإسلام حرم اتخاذ التماثيل في البيوت، وقالت لها بأن من الأفضل تكسيره ورميه في برميل القمامة.

ورغم أنها لم تأبه لنصيحة صديقتها المتدينة فإن فكرة تسليم التمثال للمتحف الحربي ظلت تؤرق بالها، وتسرب إليها هاجس بأن التمثال هو ملكية عامة، ولا يصح لها أن تستأثر بالاستحواذ عليه.

وتحت وطأة الشعور بتأنيب الضمير غلفت التمثال الأثير على قلبها بالورق، وسلمته يداً بيد لمدير المتحف الحربي.

ولمعت في ذهنها فكرة غريبة.. أنها منذ أخرجت التمثال السبئي من البيت بدأت ترى في مناماتها كوابيس مفزعة ومنها ذلك الكابوس الرهيب الذي نغص عليها حياتها وأحالها إلى جحيم لا تطاق.

سحبت اللحاف إلى منكبيها وغفت إغفاءات متقطعة.. انقلبت على جنبها الآخر وأراحت يدها على صدر شريكها في السرير، فأحست بحرارة غير عادية تلسع باطن كفها.. فتحت عينيها فوجدت الرجل الملثم بملابسه الشعبية الداكنة الألوان مضطجعاً بجوارها وعيناه تلمعان كأنهما جمرتان متقدتان.

صرخت ثائرة واقشعر بدنها من الوجل، ورمت اللحاف ووثبت هاربة بأقصى ما تمكنها قواها من سرعة، فتحت باب غرفة النوم وهبطت الدرج، وعويلها يقطع نياط القلوب.

نهض الرجل الملثم من فوق السرير وسحب جنبيته من غمدها وسار خلفها بخطوات وئيدة واثقة متفرساً في جسد ثائرة البض المحشو بداخل بيجاما قطنية وردية اللون.

وصلت ثائرة إلى الطبقة الأرضية فوجدت زوجها علي جبران نائماً على الأريكة وبيده جهاز التحكم عن بعد، والتلفاز شغالاً على مباراة كرة قدم وصوت المعلق الرياضي يلعلع بصخب.

حاولت ثائرة إيقاظ زوجها، نادته مراراً، استنجدت به، هزته بكلتا

يديها، فلم يحرك ساكناً. كوّرت كفيها وراحت تضربه بقبضتيها متشنجة وهي ترى الرجل الملثم يقترب منها، طوح بالسكين قريباً من عينيها فابتعدت مذعورة عن زوجها علي جبران، وركضت صوب نافذة مفتوحة من نوافذ الصالة وقفزت منها إلى الحديقة.

كانت الجنادب تطلق صريراً عالياً وكأنها تنوح، والكلاب تنبح وكأنها تشتم، والنجوم تلمع في السماء بشدة وكأن موتوراً أضرم فيها النيران.

كان الحارس الشيبة الملقب بـ«مارد الثورة» المسلح ببندقية كلاشينكوف راقداً عند جذع شجرة كافور هرمة، وبجواره الكلب البوليسي «رغال» الغائب عن الوجود في سبات عميق.

لمحته ثائرة فجرت نحوه وهزته بعنف ليستيقظ ويقوم بواجبه، ركلته بقدمها، انحنت على يده القابضة على البندقية وحاولت انتزاعها، وفي هذه اللحظة طوقها الرجل الملثم من الخلف بذراعه اليسرى مكمماً فمها عن الصراخ، وباليد الأخرى ألصق شفرة السكين على رقبتها.

حاولت ثائرة مقاومته، لكنه بقوة النسر التي في بدنه أحكم سيطرته عليها وساقها أمامه تحت تهديد السلاح.

كان باب الفيلا الخارجي مفتوحاً على مصراعيه فخرجا دون ضوضاء تذكر، وغابا في الظلام الدامس.

تدثرت السماء بسحب سمحاقية خفيفة، وأرسلت الشمس المختبئة خلف الأفق شعاعاً باهتاً، فانعكس هذا الحزن شفقاً أحمر رشحت منه بنايات المدينة وشوارعها وشجرها وترابها وكأنها ترعف دماً غامقاً له صنة مقرفة.

زحفت حارة الحلقوم على جبل «قربوس سام بن نوح» حتى وصلت إلى ركبتيه ثم عجزت عن الامتداد نحوه أكثر، وعند منتهى العمران اتخذ سكان الحارة من إحدى شعاب الجبل مكاناً يرفعون إليه قماماتهم حتى إذا كثرت أشعلوا فيها النيران.

إلى هذا المكان النائي الذي لا يرتاده أحد باستثناء الكلاب والزواحف والهوام وصلت سيارة شرطة جيب، ونزل منها عدد من

عناصر الشرطة.

اتجه الضابط سيف الدخيل إلى حيث تجمع عشرات الأطفال من مختلف الأعمار الذين شكلوا حلقة ضيقة. قام العسكر بتفريق الأطفال وأمروهم بالابتعاد عن المكان. تطلع الضابط سيف باشمئزاز إلى جثة مشوهة نهشتها الكلاب بلا رأس تخص امرأة كانت على ما يبدو ترتدي بيجاما نوم وردية، ثم أشاح بوجهه تقززاً من المنظر الموحش.

شكل العسكر مربعاً حول الجثة الملقاة في أخدود صخري ضيق بين قمامات متفحمة.

قال الضابط سيف مخاطباً مساعده وملامحه منكمشة إلى الداخل:

- غطوا الجثة.

تحرك المساعد عبيد إلى سيارة الجيب وأخرج من تحت المقاعد بطانية سوداء، عاد إلى الجثة، تأملها قليلاً ثم غطاها متحولاً ببصره إلى الغربان التي حطت على شآبيب صخور قريبة لا تبعد أكثر من ثلاثين متراً عن الموقع.

دوّن الضابط سيف بضع ملاحظات في مذكرة الجيب الخاصة به ثم نادى مساعده وقال له وقد لاحظ أن الغربان منتشرة بكثافة في الشعب:

- انقسموا إلى مجموعتين ودوروا على راس الجثه.

انقسمت عناصر الشرطة إلى جماعتين، ومشت كل واحدة منهما في اتجاه تفتش عن الرأس المفقود.

نظر الضابط سيف إلى الغربان برهة، وأدرك أن رجاله لن يعثروا على شئ ما دامت تلك الطيور المشؤومة قد عجزت قبلهم عن الوصول إلى الرأس.

شاس أكوام القمامة بنظرات مستاءة وسد أنفه متضايقاً من روائحها النتنة، وشعر بأمعائه تتقلقل وبأنه على وشك التقيؤ، فهرول إلىسيارة الجيب وصعد إلى مقدمتها وأغلق على نفسه بالزجاج، فاستعادت أمعاؤه هدوءها بمجرد أن أشعل سيجارة وفاح دخانها برائحة التبغ الزكية.

انتابته نوبة سعال جاف أراحته نفسياً، لتوهمه بأنه قد لفظ من رئتيه شتى الروائح الزنخة التي تناوشته منذ غادر فراشه.

اجترأت الغربان على الاقتراب من الجثة إلى مسافة أمتار قليلة.. لم يحرك الضابط سيف ساكناً، واكتفى بالتحديق ذاهلاً في المنظر الخرائبي الماثل أمامه.

وبعد دقائق سمع صوت طائرات حربية نفاثة تخترق السماء من الجنوب إلى الشمال، ثم تبع ذلك صوت انفجارات مدوية جعلت الأرض تهتز تحت قدميه، وبعد عدة طلعات هجومية تصدت الدفاعات الأرضية للطائرات المهاجمة وأجبرتها على الانسحاب.

تأمل الضابط سيف ما حصل وأدرك أن الحرب قد قامت بين الشمال والجنوب، وخمن أنها لن تتوقف حتى تلتهم أكثر من عشرين ألف قتيل.

غرقت المدينة في الظلام إجبارياً بناءً على تعليمات مشددة من القيادة العامة للجيش، وذلك بغرض إخفاء الأهداف العسكرية عن أنظار الطيارين الجنوبيين المشهورين بمهارتهم في التصويب، وكذلك ليسهل على الدفاعات الأرضية رؤية الطائرات المهاجمة والتصدي لها وإسقاطها.

ورغم أجواء الحرب وهدير طاحونتها الجهنمية فإن إجراءات التحقيق في حادثة القتل البشعة التي تعرضت لها ثائرة عبدالحق محمود لم تتأثر تقريباً.

كانت الدفاعات الأرضية المحيطة بالمدينة تنسج شبكة محكمة من النيران كلما لاحت في السماء أسراب الطائرات النفاثة السوخوي

المغيرة من عدة مطارات جنوبية.

عند بوابة قسم شرطة الحلقوم وقف عسكري مسلح للحراسة، وقد بدا عليه الاستمتاع الشديد بحفلة الألعاب النارية المقامة في الأعلى، وكان يرهف سمعه ليلتقط أزيز طائرات الحزب الاشتراكي الآتية من جهة الشرق ليبلغ عنها بواسطة اللاسلكي.. وأحياناً كان يبعث ببلاغات كاذبة فتهدر مضادات الطائرات راسمة في السماء خطوطاً حمراء متقطعة تتعامد في نظام هندسي شبيه بأقفاص السجون.

وفي حوش القسم اصطفت ثلاث سيارات جيب شرطة، وسيارة واحدة مرسيدس سوداء. وعلى ضوء شمعة كان الضابط سيف يواصل عمله من دون كلل، وبجواره مساعده عبيد الذي كان يتولى كتابة محاضر التحقيق وهو يكاد يسقط أرضاً من شدة الإعياء.

كانت غرفة التحقيق بسيطة الأثاث ضيقة إلى حد ما، ولها نافذة وحيدة تم سدها بدولاب حديدي لدواع أمنية.

سأل الضابط سيف وهو يدخن منزعجاً من تجاوزه السقف الذي حدده لنفسه يومياً من السجائر:

- هل الجثة التي اطلعت عليها هي جثة زوجتك ثايره عبدالحق؟

بدا علي جبران في حالة انهيار تام وعيناه محمرتان من البكاء فأجاب بصوت واهن مزعزع:

- نعم.

التهم الضابط سيف قطعة بطاطس مقلية من صحن بلاستيكي وضعه بينه وبين مساعده، وقال وهو يسوط علي جبران بنظرات فولاذية منذرة:

- هل عاشرت زوجتك ليلة الأمس؟

عض علي جبران شفته السفلى قائلاً وكأنه يندب:

- لا.

قال الضابط سيف بلهجة جافة خشنة:

- لماذا حزمت القتيلة ملابسها في حقيبة؟ هل كانت تنوي السفر؟

تلكأ علي جبران في الإجابة، وسحب تنهيدة حزينة من لب كعبي قدميه قائلاً:

- نعم، كانت رحمها الله ناويه تسافر اليوم الصباح لى عدن.

رفع الضابط سيف حاجبيه غير متوقع نبأً كهذا:

- لماذا؟

مسح علي جبران عينيه بمنديل من القماش وتكلم بصعوبة لجفاف لسانه:

- قالت تشتي تزور واحده قريبتها هاناك.

رسم الضابط سيف بالأصبع الشاهد إشارة على سطح المكتب ربما كانت تعني عثوره على خيط مهم في حل لغز القضية. قال وذهنه شارد إلى حد ما:

- هل كانت بينكما خلافات زوجية في الفترة الأخيرة؟

تصبب علي جبران عرقاً لأنه أدرك أخيراً صعوبة موقفه:
- لا.

أفلتت آهة سخرية مقصودة من ثغر الضابط سيف المقفل بصرامة، ثم قال وكأنه يزن كلماته في ميزان حساس لا يستخدمه إلا صاغة الذهب:
- أين كنت ليلة البارحة ؟

وضع علي جبران يده على خده وأخذ يستعيد أحداث الليلة الماضية ووجهه يزداد شحوباً وضؤولة:
- شا احكي لك ما وقع بالتفصيل..

تثاءب المساعد عبيد وألقى بقلمه السائل الأسود في سلة المهملات، وأخذ يفرد ذراعه اليمنى ويطويها ليعيد لها مرونتها بعد أن تيبست من جراء العمل ساعات متصلة في كتابة المحاضر.

ناوله الضابط سيف قلمه الحبر المعبأ بسائل أزرق ليتابع التدوين، وأشار بهزة من رأسه لعلي جبران ليكمل روايته، فقال الأخير وعيناه تغيمان وكأنهما تنظران إلى الداخل في مرآة الذات:
- أمس الساعة واحده بعد نص الليل قمت من النوم وحسيت بالأرق.. خرجت من غرفة النوم وتركت المرحومة راقده في الشق الثاني من السرير، نزلت لى الصالة وفتحت التلفزيون وتمددت على الكنبه وبيدي الريموت كنترول، وبعدها قمت

أقلب القنوات، ولقيت قناه فيها مباراة في كرة القدم، تابعت المباراه حوالي ربع ساعه وبعدها ثقلت أجفاني ونمت.

زم الضابط سيف فمه مفكراً، ثم سأل:

- ألم تشعر بحركة مريبة وأنت نايم في الصالة؟
- لا.
- هل تتهم أحداً معيناً بقتل زوجتك ثايرة عبدالحق؟
- لا.
- هل لديك أقوال أخرى؟
- لا.

خلع الضابط سيف قناع الصرامة وانفرج فمه عن شبح ابتسامة:

- تقدر تروح يا أستاذ علي، وآسف جداً إذا كنت أرهقتك بأسئلتي.

نهض علي جبران محني الظهر متيبس المفاصل وكأنه طوى في يوم واحد بحار العالم مرسياً سفينته عند ضفة الشيخوخة:

- ما بش مشكلة، أنت بتقوم بواجبك وما بش لوم عليك، أتمنى لك التوفيق في القبض على المجرم.

ابتسم الضابط سيف بمكر:

- معقول ؟ أنا مش مصدق إنك تتمنى لي التوفيق من قلبك!

فتح علي جبران باب غرفة التحقيق وعب ملء رئتيه هواءً نقياً:

- صدقني، من كل قلبي يا فندم.

أخرج علي جبران كشافاً يدوياً من جيب معطفه، وأرسل تحية باردة ملوحاً بيده اليسرى، ثم غادر مغلقاً الباب خلفه.

ضيّق الضابط سيف عينه اليسرى وقد تناهى إلى سمعه دوي طائرات نفاثة، وبعد ثوان محدودة سُمعت قعقعة المضادات الأرضية التي كانت تتفاوت في شدتها بحسب قربها أو بعدها من قسم الشرطة، فبدت له في لحظة تجلٍّ وكأنها تعزف النشيد الوطني.

قرفص الضابط سيف الدخيل متفحصاً آثاراً على تراب حديقة فيلا علي جبران. كان الكلب «رغال» ينبح، والشمس تلهب ظهره بأشعتها الساطعة، وتداعيات الحرب الدائرة رحاها بين الأخوة الأعداء تضغط على أعصابه، مما جعل قدرته على التحليل والاستنتاج تهوي إلى الحضيض.

اتجه نحو شجرة الرمان التي احتمى بظلها مساعده عبيد والحارس ناجي الذي كان محتضناً الكلب رغال وكأنه ملاكه الحارس، وسأله وقد جف ريقه من الحرارة:

- متى أبسرت القتيلة آخر مره؟

وضع الحارس ناجي يده على أذنه:

- هه؟

كور المساعد عبيد يديه وقرب فمه من أذن الحارس وزعق:
- متى ابسرت المقتولة آخر مرة؟

هز الحارس ناجي رأسه مدللاً على استيعابه للسؤال:
- آخر مرة أبسرت المرحومة كانت ليلة ما قتلت رحمها الله، انا كنت راقد متكي على جذع شجرة الكافور تيك وبجنبي الكلب، وما دريت بنفسي إلا حين قام الكلب ينبح ففتحت عيوني بالقوة وأنا ملآن نوم وأبسرت المرحومه ثايرة بتخطى وهي نايمة وفتحت الباب الخارجي وسارت لها مدري لين؟

عرت الحارس ناجي قشعريرة عقب انتهائه من تذكر الجزء الخاص به من الواقعة.

سأله الضابط سيف باستياء بالغ:
- انت آدمي والا حمار؟ للمه ما لحقت بها ورديتها للبيت؟

وضع الحارس يده على أذنه غير مستوعب:
- هه؟

زفر الضابط سيف متضايقاً وتحرك بقلق وقد انتفخت أوداجه من بلاهة الشيخ. كور المساعد عبيد يديه وقرب فمه من أذن الحارس وقد بذل جهداً مضنياً للجم ضحكاته:
- للمه ما لحقت بالمقتوله ورديتها للبيت؟

بدت ملامح الندم على وجه الحارس وتهدل حاجباه:

- انا إنسان شيبه عمري فوق السبعين سنه وما عاد في جسمي قوه ولا نشاط، ووقتها غلبني النوم بساعته أول ما غابت المرحومه عن عيني، ما افعل؟ قده حكم السن يا ولدي.

كلم الضابط سيف مساعده الذي صار ترجماناً بينه وبين الحارس:

- قل له هل سمع حركة مريبه ليلة الحادثه؟

سأله المساعد عبيد بصوت مرتفع فأجاب بالنفي.

حرك الضابط سيف رأسه متنرفزاً من نفسه:

- (...) الحمار! هو أصلاً ما يسمعش وانا اسأله إذا سمع شي! يا الله احفظنا من البلاده.

علق المساعد عبيد مبتسماً:

- على الله إن السرق ما يعرفوش إن هذا الحاج يشتغل هانا، الصدق عا يسرقوا المكان في عز الظهر وهو نايم نومة القيلوله!

اغتصب الضابط سيف ابتسامة مجاملة، وأشار للحارس أن يغرب عن وجهه. ألقى الحارس ناجي عليهما التحية العسكرية بصورة خاطئة ـ ضرب بأصابعه على قمة رأسه ـ ثم انصرف مجرجراً الكلب رغال إلى حجرته المنفردة في ركن قصي من الحديقة.

تمشى الضابط سيف في الحديقة ساهماً، قال المساعد عبيد السائر بجانبه محتملاً وهج أشعة الشمس:

- إذا كان هذا الحاج صادقاً في كلامه فمعنى هذا إن المقتوله لقيت مصرعها خارج الفله وعلى يد قاتل مجهول.

اقترب الضابط سيف من باب الفيلا الخارجي وحدق فيه بإمعان:

- الاحتمال الأقوى إن القاتل هو زوجها علي جبران، وأظن إنه قد اتفق مع ذيه الحاج على حكاية إنها بتمشي في الليل وهي نايمه من سب يبعد عن نفسه الشبهه.

أخرج المساعد عبيد مذكرة جيب ودوّن شيئاً ما:

- وللمه يقتل علي جبران زوجته؟ هو يقدر مثلاً يطلقها ويرتاح منها.
- الغيره يا عبيد، وما تنساش إن علي جبران عنين..

واصلا تجولهما المتمهل في طول الحديقة وعرضها وعيونهما تنقب عن أية آثار مادية قد توصلهما إلى الكشف عن الحقيقة.

قال المساعد عبيد وذهنه يتخيل سيناريو علاقة جنسية غامضة:

- آه فهمت، قصدك إن المقتوله كانت بتخون زوجها، ولما دري الزوج المخدوع بالعلاقه ثأر لشرفه وذبحها؟
هذا أقوى الاحتمالات حتى الآن، وعندنا دليل مهم، فاحنا لقينا آثار سايل .... في ملابس القتيلة، وهذا السايل يخص واحداً من اثنين: إما القاتل الذي ارتكب الجريمه، وإما العشيق الذي أدى اكتشاف فعلته إلى مصرع القتيله على يد زوجها علي جبران، وانا ارجح الاحتمال الثاني، ما رأيك؟

قال المساعد عبيد وقد تداعت إلى ذاكرته مشاركاته في الكبس على جحور الدعارة وما كان يراه فيها من لحم شهي:

- ما اقدرش ادلي برأيي الآن.. الصوره مش واضحه في ذهني، أعتقد إن واجبنا هو القبض على صاحب السايل بأي ثمن، ومبدئياً واجب علينا نقوم بتحريات دقيقه عن العشاق المحتملين للمقتوله.

ركز الضابط سيف بصره على النافذة التي كانت القتيلة تطل منها حينما زار الفيلا للمرة الأولى:

- والله يا أخ عبيد أنا خايف إن عشاقها يطلعوا بعدد شعر راسي!

علق المساعد عبيد متنهداً ومصالباً يديه:

- حرام عليك تظلمها يا فندم.. أظن إنهم في حدود الألف مش أكثر!

قادهما الصبي عمر إلى الطبقة الثانية وأدخلهما غرفة النوم. فتش المساعد عبيد حقيبة القتيلة بدقة ثم دولاب الملابس. وقام الضابط سيف بقلب سلة المهملات وفرزها عدة مرات. كان يأمل في العثور على مناديل ورقية أو خرق بها آثار دماء أو مني.. التقط المساعد عبيد جنبية ثمينة من بين جوارب متسخة في قاع الدولاب واستغرب وجودها في مكان كهذا. تفحصاها بعناية، ولاحظا أن المقبض مصنوع من القرن الأسعدي الذي قد يتجاوز عمره الستين عاما، وفي أعلاه وأسفله زهرتان مستديرتان ذهبيتان، وتفصله عن النصل مبسم فضي تزينه زخارف هندسية جميلة، وأما النصل ذاته فكان من النوع الحضرمي المصنوع من الحديد الهندوان فائق الجودة. وجه المساعد عبيد سؤالاً للصبي عمر عن هوية مالك الجنبية ؟ فباح

له الأخير بحكاية الشيخ «هلال» وسر وجود جنبيته في غرفة نوم القتيلة.

ابتسم الضابط سيف متخابثاً:

- يا الله خراجك.. من أولها يطلع لنا واحد مشعوذ!

قال المساعد عبيد متفكهاً:

- ما رأيك يا فندم نسير لى عنده؟ أنا حاسس إن عندي سحر!

قال الضابط سيف وهو يحك ذقنه متصنعاً الجدية:

- وأنا والكل محتاج استعير منه عفريت يساعدني في حل هذه القضية!!

وقفت سيارة الشرطة الجيب عند منزل عاقل حارة الحلقوم، وترجل منها الضابط سيف ومساعده عبيد، وأرشدهما العاقل إلى مسكن الشيخ «هلال» الذي كان يبدل مسكنه بصفة دورية لافتة للنظر. وما أن اقتربا من الباب المقصود حتى خرج منه بالمصادفة الحاج زبطان بلحيته الشعثاء وملابسه الوسخة مجرجراً عموداً خشبياً خلّف خطاً متعرجاً على تراب الزقاق.

علق عاقل الحارة متظارفاً:

- هذا الحاج زبطان جا أخذ له من الشيخ هلال جرعة إيمانية!

قال الضابط سيف وقد استرعت انتباهه هيئة زبطان الغريبة:

- كيف أخذها؟ عضل وإلا وريد؟

ضحك عاقل الحارة حتى بدت أسنانه المصفرة من تعاطي الشمة ثم استأذنهما ومضى لشؤونه.

طرق المساعد عبيد على الباب الخشبي عدة مرات بقوة، فأجابهما صوت معدني يشبه تصادم علب كوكاكولا فارغة:

- من الطارق؟

تبادل الضابط سيف ومساعده الابتسام على تفاصحه المتكلف، جاوبه المساعد عبيد:

- إفتح يا شيخ هلال.

فتح الأخير الباب وحدجهما بنظرة مندهشة، ألقى الضابط سيف عليه السلام ثم عرف بنفسه وصاحبه:

- أنا المقدم سيف الدخيل مدير قسم شرطة الحلقوم وهذا المساعد عبيد الدويهي، جينا نستفسر منك عن بعض أشياء.

حرك الشيخ هلال سماطته المسبلة يمنة ويسرة:

- أهلاً وسهلا تفضلا.

تنحى الشيخ عن طريقهما وصاح لزوجته وهو يسبقهما في الدخول:

- يا أم حذيفة طريق.. طريق.

كانت هذه إشارة لزوجته بلزوم غرفتها كي لا يراها الضيوف.

عبرا حوشاً ترابياً مأهولاً بالدجاج والأرانب، وسدا أنفيهما من رائحة الفضلات العطنة. سبقهما الشيخ إلى دخول غرفة الضيوف، وألقى

السلام ثم خرج من باب آخر إلى الداخل.

دخلا الغرفة وهما يفتشان بنظرهما عن المعني بالسلام فلم يجدا أحدا.. جلسا على مراتب قطنية عتيقة وتأملا الغرفة الفقيرة من الأثاث وقر في نفسيهما أنهما في ضيافة رجل كثير التنقل، يمارس عمله وفق مبدأ «اضرب واهرب!».

رجع الشيخ حاملاً صحناً معدنياً صدئاً به ثلاثة أقداح متنافرة الأحجام والألوان والنقوش، فيها قهوة قشر مرة.

أخذ كل واحد قدحه وراحوا يتبادلون كلمات المجاملة على روعة القهوة ونكهتها ومقادير الزنجبيل الملائمة للذوق السليم.

سأل الشيخ هلال محاولاً التودد إلى الضابط الرفيع الرتبة:

- ما هو لكم إمام الجامع محمد الدخيل؟

رد الضابط سيف بفظاظة:

- من القرية.

امتعض الشيخ هلال من أسلوب الضابط المتعجرف، وأخذ يهمهم بآيات قرآنية ليظهر تقواه.

رفع الضابط سيف يده وأخذ يفتل شاربه معطياً بذلك إشارة البدء:

- قل لي كم قد لك بتمارس مهنة الشعوذة؟

توقف الشيخ هلال عن تسويك أسنانه وأجاب بمسكنه:

- تشتي تعرف متى بالضبط؟

أخرج المساعد عبيد نوتة جيب وقلماً واستعد للتدوين، جاوبه الضابط سيف بحزم:

- نعم.

قال الشيخ هلال بتنمر وأحد حاجبيه يرتفع متحدياً:

- والله أنا بدأت أمارس هذه المهنة في اليوم الذي خرجت فيه أنت من بطن أمك، لأنه يومها اسودت الدنيا في وجهي ولم أجد وسيلة لكسب عيشي إلا من هذه الطريق.

أطلق المساعد عبيد العنان لضحكاته، فالتفت إليه الضابط سيف بغضب مطفئاً ضحكاته، ثم قال ووجهه يكتسي ملامح صلبة وكأنها مصبوبة من الفولاذ:

- متى ابسرت القتيله ثايره عبدالحق آخر مره؟
- الساعة التاسعة ليلاً، أي قبل وفاتها رحمها الله بساعات قليلة.
- أين؟
- في بيت زوجها.
- أين بالتحديد؟
- في القبو.. في غرفة تخص ذلك الولد الذي تبناه علي جبران هداه الله.

أخذ الضابط سيف يلعّب حواجبه مجارياً ملامح الشيخ التي كانت

تتغير بسرعة قياسية:

- هداه الله.. من تقصد؟ الولد؟
- لا يا أخي، إنما قصدت العلج علي جبران.
- لماذا؟
- ألا تعرف يا أخي؟ إنه اشتراكي ملحد يدعو إلى نبذ تطبيق السنة.
- وما رأيك في زواجه من المرحومه ثايره؟ هل يعتبر زواجه منها جايز شرعاً؟

رد الشيخ هلال بانفعال ويده ترسل إشارة حادة:

- كلا، إن زواجه منها باطل شرعاً لأنه كافر ضال.

قال الضابط سيف وهو يرشقه باتهام مبطن:

- ألأجل هذا سعيت إلى التفريق بينهما؟

صُدم الشيخ هلال وفغر فاه برهة، ثم قال مضيّقاً عينيه الضيقتين أصلاً:

- ما قصدك؟ لم أفهم؟

قال الضابط سيف مكشراً عن أنيابه:

- قصدي واضح، كنت تشتي تطلقها من زوجها لتتزوجها أنت!

اختلج خد الشيخ هلال ورد بجفاء:

- هذا كذب.
- الولد الصغير عمر كلمني عن وجود علاقه مشبوهه بينك وبين القتيله ثايره..

جحظت عينا الشيخ هلال وخرج عن وقاره وتفيصحه:
- هذا ورع (...) بيستفعل فيه علي جبران وخبرته الاشتراكيين وتشتي تصدقه؟ عاد شي عقل!

قال المساعد عبيد وقد أحس بأن الشيخ هلال قد بدأ يفقد هدوءه ويتخبط في إجاباته:
- لكن علي جبران مصاب بمرض خبيث أعجزه عن ممارسة الجنس..

رد الشيخ هلال مستثاراً من تعريضهما بوجود علاقة آثمة ربطته بالقتيلة:
- والله إنه بخير ساع الحصان واعملوا فحص طبي لحقه الولد وانتوا عا تعرفوا الحقيقه.

تأمل الضابط سيف حزام الجنبية المعلق بالجدار المصنوع من قماش الخيام المتين المطرز بخيوط ذهبية وفي وسطه غمد حاشدي ذو زاوية حادة مصنوع من خشب «الطنب» وملبّس بالجلد المدبوغ المصبوغ باللون الأخضر ومغطى حتى منتصفه بالفضة ونصفه الأعلى لفت عليه حبال رفيعة خضراء.. قال ويده على ذقنه:
- معك عسيب حالي لكن أين الأصل.. أين الجنبية؟

التفت الشيخ هلال إلى الغمد الخاوي زائغ النظرات:
- الجنبية أعرتها للمرحومة.

قال الضابط سيف وهو يشعر بأنه قد اجتاز خطوة مهمة للإيقاع بالقنفذ المتحصن بأشواكه:

- لم؟

رد الشيخ هلال وجبينه يتفصد عرقاً:

- اشتكت لي من كابوس خطير يؤرق نومها فأعطيتها جنبيتي لتمنع الجن والعفاريت من مسها وهي نائمة.

علق الضابط سيف ساخراً:

- ولكن جنبيتك ما منعتش الجن والعفاريت من لمسها، والدليل إنها ماتت مقتوله بطريقه بشعه.

قال الشيخ هلال مغتاظاً:

- يا أخي الأعمار بيد الله، ثم أنا أعطيتها جنبيتي لتمنع عنها عمل الجن وليس عمل الإنس!

قال المساعد عبيد غامزاً بعينه لرئيسه:

- هل أنت داري يا شيخ إنه من التقاليد الشعبيه المتوارثه من آلاف السنين في بلادنا أن يعطي العريس جنبيته لعروسته ليلة الزفاف لنفس الغرض.. أي لحمايتها من السحر والعين ولمس الجن؟؟

قال الضابط سيف هاشاً في وجه الشيخ وكأنه يبشره بخبر سعيد:

- سبحان الله، أنت عاملتها من غير ما تقصد وكأنها زوجتك!

قال الشيخ هلال وأسنانه تصرف من التوتر:

- هذا خبر ثاني ما له علاقه بموضوعنا.

قال المساعد عبيد وبصره مصوب نحو السقف المسود من حرق البخور:

- الغريب إن تقرير الطبيب الشرعي بيقول إن المرحومه فقدت بكارتها قبل ساعات من مقتلها، وترك أبو عذرتها آثار منيه على ملابسها، في رأيك من هو هذا المحظوظ؟

أخذ الشيخ هلال يعبث بلحيته وقال بثقة مفرطة:

- أظنني أعرفه!

تبادل الضابط سيف ومساعده نظرات سريعة وقالا في وقت واحد:

- من؟
- استغفر الله العظيم، المثل يقول اذكروا محاسن موتاكم.

قال الضابط سيف منفعلاً خابطاً بيده على الموكيت الرخيص الثمن:

- إحنا بنحقق في جريمة قتل مش إحنا في مجلس عزاء.. تحاكى.

أخفض الشيخ هلال عينيه وتكلم بصوت هامس:

- عفوك يا رب، يقولون إنها كانت تتردد يومياً على شاب صاحب مكتبة اسمه منير الوازعي.

همس المساعد في أذن رئيسه:

- منير هذا هو صاحب المكتبة الذي كلمتكم عنه. إنه بيبيع بالخفية كتباً سياسية محظورة.

هز الضابط سيف رأسه مستحسناً المعلومة وقال:
- هل هو عشيق للقتيلة ثايره عبدالحق؟

أخذ الشيخ هلال يلوك مسواكه وقال نافثاً من فمه شطفاً دقيقة:
- استغفر الله، أنا لم أقل ذلك يا أخي، حرام عليك!

انزعج الضابط سيف من نفاق الشيخ وقال بصوت ساخط:
- (...) الحمار، ما هو؟ دوختنا!

حك الشيخ هلال أذنه مستجمعاً كل ما لديه من دهاء وختل:
- أنا كلامي واضح، أنا قلت إنها كانت تتردد على المكتبة كل يوم تقريباً.

نفث الضابط سيف من صدره هواءً حاراً ولوى وجهه. قال المساعد عبيد ملاحظاً أخاديد حمراء على وجه الشيخ تشبه أن تكون خربشة أظافر:
- يا شيخ هذا شي عادي إنها بتسير للمكتبة كل يوم تشتري صحف ومجلات.. الفندم يشتي يعرف هل بين المرحومه وصاحب المكتبه علاقه غراميه؟

رد الشيخ وهو يهز رأسه وكأنه معلم يلقن تلاميذه درساً أو موعظة:
- يا أخي الناس تتكلم عن وجود علاقة محرمة بينهما، ولكن لا أحد يستطيع أن يجزم.

نهض الضابط سيف قائلاً:
- أساليبك قديمه يا شيخ هلال، الطبيب الشرعي يقدر يجزم

بهوية الشخص الذي عمل علاقه محرمه مع ثايره قبل ساعات من مقتلها.

نهض المساعد عبيد وكذلك الشيخ هلال الذي طافت بشفتيه ابتسامة استهزاء. تابع الضابط سيف وهو ينقر بأصابعه الغمد الفارغ:

- بالمناسبة أنت مدعو لزيارة البحث الجنائي غدوه الساعة عشره صباحاً.

أدخل الشيخ هلال إصبعه في فتحة أنفه وضحك قائلاً:

- ها، لا بأس، على الأقل أصبح عندي عذر شرعي لاعتزال أم حذيفة!

ضحكوا ثلاثتهم بمرح، وخرج الضابط سيف ومساعده من بيت الشيخ هلال وهما يشعران بأن عليهما فرض رقابة مكثفة عليه كي لا يفر خلال الساعات القليلة القادمة التي تفصلهم عن موعد أخذ العينة.

أكد تقرير الطبيب الباثولوجي عدم تطابق العينة المأخوذة من الشيخ هلال مع آثار السائل .... المتخلفة على ملابس القتيلة ثائرة عبدالحق.

عض الضابط سيف لسانه حرداً لنجاة الشيخ هلال من تهمة النزو على القتيلة، وظل يقرأ التقرير واجماً عدة مرات غير مصدق لما ورد فيه.

وبعد ساعة من ظهور النتيجة اندفعت سيارة شرطة جيب إلى الشارع الذي لم يتبرع أحد بتسميته، ووقفت أمام مكتبة «ملحمة السبعين يوماً».

ترجل الضابط سيف ومساعده عبيد من السيارة، وعلى الفور لفت

انتباههما زجاج واجهة العرض المهشم. جس الأول بيده سماكة الزجاج، وأخرج الثاني مفكرة الجيب وسجل ملاحظة، ثم دخلا المكتبة وعيونهما تعانيان من عدم وضوح الرؤية.

كان منير جالساً على مقعده الخشبي المتآكل يقرأ كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي، وبجواره مسجلة تنبعث منها موسيقى عزف على القانون.

أدى وقوف الضابط سيف في مدخل المكتبة فترة من الوقت إلى حجب أشعة الشمس، فانتبه منير الغارق في القراءة إلى تناقص الضوء فرفع رأسه متضايقاً، وحين لمح الضابط وتابعه يلجان إلى الداخل وضع الكتاب على الرف، وأطفأ المسجلة ووقف مرحباً بهما:

- يا حيا.

أهمل الضابط سيف الرد على ترحيب منير، وراح يقرب وجهه من عناوين الكتب وكأنه يبحث عن عنوان مريب.

شعر منير بالإهانة من طريقة الضابط المتعالية في التعامل معه، فقال بلهجة باردة تخلو من الدفء:

- تأمروا بشي يا فندم؟

قال الضابط سيف المشغول حتى أذنيه بالبحث عن مؤلفات ماركس ولينين:

- أنت منير الوازعي؟

رد منير وهو يلاحظ أن عدداً من عناصر الشرطة قد نزلوا من

السيارة الجيب لتفريق الفضوليين:

- نعم.
- هل لديك أقوال أخرى؟ آآ..

التفت الضابط سيف صوب مساعده محرجاً من نسيانه المهمة التي جاءا من أجلها، وقال مخفضاً من غلواء غطرسته:

- ما هو الذي جينا من أجله يا عبيد؟

تلافى المساعد عبيد الخطأ وقال موجهاً كلامه لمنير:

- الفندم كان يشتي يسألك متى آخر مره قابلت المرحومه ثايره عبدالحق؟

اقشعر بدن منير وهو يرى دبابة من طراز تي ٥٢ تعبر الشارع وصوت جنزيرها يسحج الإسفلت، قال وقد غزا الصداع دماغه:

- آخر مره كانت قبل الحادثه بيوم.

تابع الضابط سيف اهتمامه بعناوين الكتب وقال بشرود:

- واصل.
- كانت المرحومه تجي كل يوم لي هانا الصباح تشتري المجلات وبالذات مجلات الأزياء والموضة.
- ما كانتش تطلب منك مجلات خلاعية؟
- لا.
- ولا كتب سياسية؟
- لا يا فندم، هي كانت رحمها الله مشغوله بعالمها الخاص وأبعد واحده عن الانتماء السياسي.

- هل كنت تحس إنها بتعاني من فراغ عاطفي؟

ارتبك منير في الإجابة وتلكأ:
- أم.. مدري.
- هل حسيت إنها بتحاول تتقرب منك.. تستلطفك مثلاً؟

احمرّ وجه منير خجلاً وتركز الدم في قصبة أنفه ورد معانياً من جفاف حلقه:
- إطلاقاً يا فندم.. ما حدث أي شي من هذا القبيل.

تخلى الضابط سيف عن أسلوب توجيه الأسئلة إلى منير من وراء ظهره وواجهه بسؤال كمن يطعن بسكين:
- إذاً لمه يشيع الناس عنك وعن القتيله إنه كانت بينكم علاقه غير شريفه؟

أسقط منير علبة ألوان بحركة خرقاء من يده، وقال متقطع الأنفاس من الانفعال وتعاظم نبضات قلبه:
- الناس، تقصد أهل الحاره؟ هؤلاء ناس سطحيون ومولعون بالنميمه على بعضهم البعض كعادة أي جماعه بشريه صغيره منعزله عن العالم.

قلب الضابط سيف شفته السفلى متهكماً:
- صورتك مثقف يا أخ!
همس المساعد عبيد في أذن رئيسه، فقال الأخير ونظره مثبت على الزجاج المهشم:
- من الذي كسر عليك زجاج واجهة المحل؟

تستر منير على الحاج زبطان كي لا يورطه في سين وجيم وقال:
- أولاد كانوا بيلعبوا كره.

انحنى الضابط سيف متأملاً أصابع منير الملفوفة في الشاش الأبيض عن كثب:
- سلامات، أصابعك مجروحه، واضح إنك واجهت صعوبه في القضاء على ثايره؟

قال منير وقد جحظت عيناه من الذعر:
- يا ساتر ! عقلك راح بعيد يا فندم، كل اللي حصل إني حاولت تلافي سقوط باقي الزجاج فجرحت أصابعي.

نظر الضابط سيف في عيني منير بثبات وتركيز:
- هل أنت واثق من براءتك؟
- بالتأكيد.
- إذاً فأنت ما بش عندك مانع ناخذ منك عينه من سايلك .... ونفحصها في مختبر البحث الجنائي؟

ابتسم منير وكأنه قد عثر على طوق نجاة:
- ما بش عندي أي مانع، خذوا منه كما تشتوا!

كشر الضابط سيف عن أسنانه مفتعلاً الابتسام:
- تمام، غدوه الساعه عشره نلتقي هاناك.

أومأ منير برأسه مؤكداً الموعد. خرج الضابط سيف ومساعده وصعدا سيارة الجيب، وشيعهما منير حتى بسطة درج المدخل، قال

له الضابط سيف مودعاً والسيارة تتحرك:

- بالمناسبة أنت مراقب فلا تحاول تهرب!

ضحك منير وكأنه استمع إلى نكتة. ولفت انتباهه تمركز دبابة من طراز تي ٦٢ عند رأس الشارع، وسمع من المارة تعليقات تذكر أن الجيش «الشمالي» قد قام بخطوة احترازية ونشر الدبابات في الميادين الكبرى والشوارع الرئيسة.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً سمع منير صوت قصف عنيف وتبادل إطلاق نار آت من جنوب المدينة، استمر قرابة الساعتين ونصف، ثم ساد الهدوء التام قبيل صلاة العصر.. وتبين بعد ذلك أن الجيش قد قام بدك مقر الحزب الاشتراكي اليمني بنيران المدفعية، واقتحم مجمع المباني برتل من الدبابات وكتيبة مشاة، وبعد معركة غير متكافئة مع عناصر الحزب ـ الذين لجأوا إلى حرم مقرهم هرباً من الاعتقال والمسلحين بأسلحة خفيفة ـ ارتفع العلم الأبيض وسلّم الناجون من القصف أنفسهم للجيش.

أمام بيت عياش ـ الشعبي البناء ـ ترعرعت شجرة كافور مياسة القد وارفة الأغصان وتسامقت طولاً حتى نافت إلى الطبقة الثالثة.

شق سكون الليل نعيب بوم وهفهفة ريح شرقية محملة بالغبار أتت من صحراء الربع الخراب.

كان الزقاق مظلماً وأنوار بيت عياش مطفأة كلها، فاستغل أحدهم تسيد الظلام للمكان وتسلق شجرة الكافور وأرسل نظره إلى نافذة مفتوحة بالطبقة الثالثة كانت الريح تعبث بستارتها البيضاء الخفيفة وترفعها عالياً، وبهدوء شديد درس تفاصيل الحجرة المضاءة بنور أزرق شفاف وتأمل صورة عائلية مبروزة بإطار مدهون بماء الذهب لأروى وهي بعمر عام واحد مع والديها وهما شابان.

تملى طويلاً برؤية أروى وهي راقدة على فراش قطني يرتفع عن الأرض بمقدار عشرة سنتيمترات، ولحافها عند قدميها اللتين انحسر عنهما قميصها البرتقالي الخفيف، كانت تبدو له شهية وهي جامدة بلا حراك وأكثر جمالاً مما لو كانت مستيقظة.. كانت لذته مزيجاً معقداً من حضور المحبوب وغيابه في آن.. يحب جسد المرأة ويكره لسانها وعقلها وروحها وكل شئ يدلل على إنسانيتها مثله، كان يتمنى لو أن المرأة مثل الدمية خالية من الروح، يستخدمها وقت الحاجة ثم يدسها في الدولاب وينسى وجودها إلى أن تدعو الحاجة إلى استخدامها مرة أخرى.

أخذت أروى تطلق همهمات مكتومة، وكان جبينها ينضح عرقاً، وملامح وجهها تنقبض وتتلون بآلام خفية. العينان كانتا نصف مفتوحتين وإنسانهما يتحركان في وقبهما بسرعة وتوتر. كانت ترى في نومها كابوساً مؤذياً.. كانت ترى نفسها تفر مذعورة وشعرها منكوش من زقاق لزقاق وقد أضناها البحث عن بيت عائلتها، وخلفها رجل ملثم الوجه، يرتدي ثوباً رصاصياً ومعطفاً أسود، يتعقبها من مكان لمكان.

وبعد ساعات من المطاردة أدركها الإعياء فاستندت بظهرها إلى جدار منزل ما وكأنها تحتمي به من الغول الآدمي الذي يستهدف حياتها، وإذا بها تحس بحصوات صغيرة تتساقط على رأسها، رفعت بصرها للأعلى فرأت الرجل الملثم يطل عليها من عل ! صرخت بكل ما في حبالها الصوتية من قوة وحاولت الفرار لكنه قفز فوقها بكل ثقله ودق جسدها بأرض الزقاق الحجرية حتى أعجزها عن النهوض، وبسهولة سيطر على زمامها وجثم فوق لوحي ظهرها وسل جنبيته وألصق النصل بحنكها وأخذ يحز، فيما كانت أروى

تحته زائغة البصر ترسل حشرجات أليمة.

وكمن يصعد من قاع البحر إلى السطح مستنشقاً الهواء بعد أن أوشك على الهلاك، كذلك فزّت أروى من نومها مذعورة وصياحها يدوي في الأصقاع، وقعدت ملمومة على نفسها تتحسس رقبتها وتتلفت حواليها وعلى محياها فزع عظيم.
بهدوء انسل المتلصص، ونزل من شجرة الكافور إلى الأرض، وغادر الزقاق بخطوات خفيفة كالثعلب.

فتح والدا أروى باب غرفتها ودلفا إلى الداخل مضطربين، وأضاء عياش السراج الأصفر وخاطب ابنته ورأسه يمور بالتخمينات البطّالة:
- أروى ما لك؟ له هذا الصياح؟

احتضنت الأم حسنى ابنتها المرتعشة من الخوف:
- سلامتك يا بنتي من كل شر..

وشرعت الأم المسكينة تقرأ المعوذات وفواتح السور على ابنتها التي استسلمت للبكاء والنحيب وكأنها ذبحت بالفعل.. كان تأثير الكابوس على نفسيتها شديداً ومؤلماً إلى حد أنها كانت تشعر بحزوز على رقبتها!

داعب عياش خصلات شعر ابنته ونظر إلى عنقها المبلل بالعرق:
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. ما هو؟ جا لك رازم؟ هه؟
أومأت أروى برأسها إيجاباً وقد آبت روحها المعذبة إلى تلافيف قلبها المتسارع النبضات فرقاً من الرؤية.

أغلق عياش النافذة وقال متنهداً:
- الحمدلله إنه رازم مش هو حقيقه.

بعد دقائق انطفأت إضاءة الغرفة الصفراء، وعادت البوم تنعب بتصميم وكأن شعاع القدر يندلق من حناجرها على أديم الأرض الذي سيمشي عليه في الغد بشر بلا أجنحة تمكنهم من الفرار من مصائرهم المرعبة.

استلقى عياش على فراشه وظل مسهداً مهموماً بابنته العزيزة على قلبه التي أصيبت منذ فجعت بمقتل خطيبها «الحدي» بحالة من الكآبة والسوداوية أذبلت محاسنها وأضعفت شهيتها للطعام.

هكذا وصلتهم الرواية شفاهاً باختلاف يسير في التفاصيل عبر رواة عديدين:
ذهب الأخوة الأربعة العائدون من الخليج إلى مسقط رأسهم بالقرية، حيث استقبلوا بالألعاب النارية والطبول والمزامير ومظاهر البهجة والفرح، وذبح الوجهاء العجول والكباش وأقاموا الولائم على شرفهم، وحين جاء دور ابن عمهم «الغشي» في استضافتهم ذبح كبشين، وسكب العسل والسمن بأريحية لم يشهد لها أهل القرية مثيلاً، وسقاهم عصير ماء الورد المبرد وعطّرهم، وأكرمهم بمشاقر الريحان، وطوقهم بعقود الفل، ورتب مجالسهم في الديوان وأصلح لهم بنفسه الوسائد والمتاكئ، ووزع عليهم قاتاً باهظ القيمة، فشهد له الجميع بأنه قام بواجب الضيافة خير قيام.

ومرت ساعة كان فيها من الانشراح والحبور ما لا يمكن وصفه، وهم يمضغون القات ويتبادلون النكات والقفشات. ودون أن يثير

انتباه أحد، خرج «الغشي» من الديوان بضع دقائق، ثم عاد حاملاً بندقية كلاشينكوف بطنها عامر بالرصاص، حيث وقف بالباب وراح ينتقي أبناء عمه من بين الجالسين وأصلاهم النار.

لقي الحدي والنعمي مصرعهما على الفور، وأصيب العبدي بثلاث عشرة طلقة وأسعف للمستشفى الذي يبعد عن القرية مئة كيلومتر ورغم ذلك نجا من الموت بأعجوبة. وأما الأخ الرابع العلي فقد صادف أنه خرج من الديوان ليريق الماء فلم يصبه أذى.. وعقب المذبحة فر الغشي من القرية وما تزال السلطات تبحث عنه.

مشت زينب مكتئبة وهي تضم بضعة دفاتر مدرسية إلى صدرها في الشارع الذي لم يتبرع أحد بتسميته، ففي أوله حدثت مشاجرة بالهراوات بين أصحاب الدكاكين وموظفي البلدية، وفي وسطه وقع حادث تصادم مريع بين باص صغير وقاطرة محروقات أودت بحياة أربعة من ركاب الباص وأصيبت طفلة تصادف مرورها وقت الحادث بحالة بكاء عصبية ذهبت بعقلها، ثم اكتملت المنغصات عندما عبرت الشارع قاطرات متعجلة تنقل ماشية وسلكت ممراً ترابياً متجنبة موقع الحادث فصعد الغبار في الهواء وانهمر كالطوفان على المارة، حتى أن زينب دمعت عيناها من التهاب غشائهما وشق عليها التنفس.

مرت بحانوت الجزار ورمقته بنظرة عابرة عادية فإذا به يبتسم لها

ابتسامة عريضة وكأن بينهما معرفة سابقة.

فوجئت بمكتبة «ملحمة السبعين يوماً» مغلقة فاعترتها الحيرة ودب القلق في نفسها، ووقفت تتلفت إلى كل اتجاه أملاً في أن يزغ منير من أي منها.

خرج الجزار من حانوته وقد غسل وجهه وخلع مريلة الجزارة واتجه نحوها قائلاً:

- انتي منتظره منير؟

جاوبته زينب وفمها ممتعض يعكس تضايقها من تطفله:

- نعم، أشتي اشتري علبة طباشير.

سلقها الجزار من قمة رأسها وحتى كعبيها بنظرة نهمة:

- وفري زلطك، منير راح له.

شهقت زينب قائلة باندفاع:

- هاه.. راح له.. اين؟

تلمظ الجزار وهو يتخيل مقدار اللذة التي سيعتصرها من جسد الواقفة أمامه لو أمكنه أن يختلي بها، وقال ململماً شفتيه كمن يقبل ويرتشف:

- اليوم الصباح جات سيارة شرطه مقفصه وسياره ثانيه ملآن عسكر مسلحين قبضوا عليه وبزوه للبحث الجنائي.

تكلمت زينب ببطء متشككة في أقواله:

- هذا غير معقول.. أنا مش مصدقه هذا الكلام.

ضحك الجزار وضرب كفاً بكف:
- انتي حره، المهم إن الدوله لقيت القاتل!

طافت دمعة قهر بعين زينب المحمرة أصلاً من الغبار القذر الملوث بمياه المجاري الطافحة من البلاليع:
- منير قاتل؟ أكيد في شي غلط في الموضوع..

ربت الجزار على كتفها مواسياً في حركة لا تخلو من وقاحة منفرة:
- انتي اللي طيبه وعلى نياتك.. منير هذا جاري وأعرفه من زمان.. ثعبان في صورة إنسان!

أبعدت زينب يده الغليظة المشعرة من فوق كتفها وردت بقسوة:
- يا كذاب.. منير اللي بتتكلم عليه اتربيت أنا وهو وعاد إحنا جهال صغار بنلعب في الحاره وأعرف أخلاقه الطيبه وانه مش ممكن يأذي مخلوق.

قال الجزار غامزاً بعينه وأتى بإشارة فاضحة من أصابعه:
- يعني ما كانش بيعمل لك حاجه كذا والا كذا؟

اقشعر وجه زينب وكأنها ابتلعت ليمونة حامضة على الريق وقالت كازة على أسنانها:
- أنت أقذر إنسان لقيته في حياتي.. ومهما غسلت وجهك ما عا تقدرش تخليه نظيف، عارف للمه؟

قال الجزار وقد ارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامة لامبالاة بلهاء:

- للمه؟

قالت زينب بلهجة هجومية وغضبها يتصاعد ويبلغ أوجه:

لأنك برميل قمامة .

سدت زينب منخريها لتؤكد تأذيها من رائحته النتنة، ثم بصقت في وجهه ومضت إلى بيتها وهي تحث الخطى والغضب يكاد يفقدها صوابها.

وأما الجزار فقد لبث في مكانه مسحوراً بجمال قوامها ورشاقة خطواتها ووفرة عجيزتها، واعتبر ريقها المتناثر على سحنته الغبراء فأل حظ حسن!

وعاد إلى حانوته غير مبال بمرور ثمانين ناقلة عسكرية محملة بوقود المعركة عبرت الشارع بسرعة البرق، مصاحبة بالنشيد الوطني الذي رددته حناجر آلاف الجنود المرسلين إلى ميادين القتال في الجنوب.

حين وضعت السماء النقاب على وجهها، أبحرت الحاجة حسنى وابنتها أروى في أزقة الحارة متجهتين صوب بيت لم يكتمل بناؤه، يحيط به حوش متنافر الشكل لتعدد المواد التي دخلت في بنائه من بلك وخشب وصفيح وكرتون.

دقتا الباب بتلطف كي لا يلفتا انتباه الجيران، وفتح لهما الشيخ هلال والمسواك مركوز في فمه وكأنه يدخن السيجار الكوبي الشهير.

مرقتا من الحوش المظلم على ضوء شحيح من قمر غير راغب في الظهور، ولاحظتا وجود مئات من الضفادع مفتوحة العيون تراقبهما بصمت وكأنها مدعوة لحفلة سرية.

سيطرت أروى بصعوبة على رعبها من الضفادع، وابتلعت صرخة فزع فأحست بانتفاخ مؤلم يملأ معدتها وكأنها طبل مشدود.

دخلوا ثلاثتهم إلى الغرفة ذات البابين الرثة الأثاث، وجلس الشيخ هلال في مواجهة المرأتين وقد أخرج مصحفاً صغيراً من جيب الثوب الأبيض، وكأنه يقشر موزة فتح سوستة الغلاف الجلدي واختار عشوائياً صفحة راح يقرأ منها بينه وبين نفسه مدمدماً بأصوات غير مفهومة ومتمايلاً برأسه تأثراً.

ظلت المرأتان تراقبانه بانتباه، وانتابت أروى مشاعر الخشية من الشيخ حين لاحظت الشبه الكبير بين عينيه الجاحظتين وعيون الضفادع.. وبين الحين والحين كانت تلتفت إلى الباب خوفاً من ضفدعة متطفلة تثب نحوها.

بعد مرور ربع ساعة دخلت أم حذيفة ـ زوجة الشيخ ـ وهي تحمل أكواب القهوة، وضعتها في وسط الغرفة وسلمت على المرأتين ببرود وتعال، ثم خرجت وقدماها تهزان الأرض من وطأة ثقلها، إذ كانت تزن قرابة برميل من النفط.

وضع الشيخ هلال المصحف في الجيب الملاصق لقلبه، ورفع كوب القهوة إلى قرب فمه وأخذ ينفخ فيه وعيناه تحدجان أروى بنظرة فضولية تكتنه تفاصيل جسدها الغض.

رنت الحاجة حسنى إلى ساعتها فأقلقها أن تتأخر أكثر، فقالت عارضة الموضوع على الشيخ دون انتظار إشارة منه:

- يا شيخ هلال قالوا لنا إنك بتعالج الأمراض بكلام الله فقلنا نجي لى عندك يمكن نستفيد.

مص الشيخ هلال القهوة وأجالها في فمه متلذذاً، وبسرعة البرق رتب في ذهنه أوضاع المعالجة، ثم قال وعيناه تلمعان وتبثان شعاعاً من السيطرة والقوة والشهوة:

- خير إن شاء الله.. ماذا عندكما؟

انبهرت الحاجة حسنى بكلامه الفصيح وكأنه واحد من الصحابة الذين يظهرون في المسلسلات الرمضانية، فقالت وأصابعها تشتبك مع بعضها حرجاً من سخافة المشكلة التي ستطرحها على رجل فاضل جليل مثله:

- الصدق هي حاجه بسيطه، معي بنتي تيه عندها رازم خبيث قد له فتره بيعذبها عذاب يا لطيف الطف، وذلحين نشتي منكم علاج يقطعه.

انتاب الشيخ هلال شيء من الذهول، وقال مادّاً رأسه إلى الأمام:

- غريبه!

تبادلت المرأتان النظرات القلقة، تابع الشيخ هلال مشيراً بإصبعه إلى أروى:

- قُصي علي رؤياك أصلحك الله.

تطلعت أروى إلى أمها مستنجدة بها، فتلقت منها إيماءة تشجيع، فقالت بصوت خافت مضطرب:

- أنا كنت أبسر في الحلم إن أنا أسير وحدي في زقازق الحاره

والدنيا ليل وانا خايفه قوي.. وما أدرى إلا وبه رجال وجهه ملثم بسماطه بيلاحقني..

قاطعها الشيخ هلال قائلاً مبهور الأنفاس:

- كنت تهربين منه ولكنه في النهاية يمسك بك ويذبحك بجنبيته من الوريد إلى الوريد، أليس كذلك؟

فغرت أروى فاها دهشة، وصاحت أمها منفعلة:

- انت تتكلم بنور الله !

ابتسم الشيخ هلال وشعر بالزهو، قالت أروى وهي تحملق فيه غير مصدقة أنه يمتلك قدرات خارقة:

- لكن ما دراك؟

قال الشيخ هلال رافعاً رأسه ومثبتاً بصره على السقف المسود بالسخام:

- إن الله إذا أحب أحداً من عباده آتاه علم ما في الصدور.

تهللت أسارير الحاجة حسنى:

- ياسين عليكم ياسين !

قال الشيخ هلال وهو يفتل شعيرات ذقنه الخشنة:

- بعون الله علاج الأخت على يدي، وأنا أعدها بالشفاء التام من الرؤى الشيطانية في عشرة أيام بشرط أن تلتزم بكل كلمة أقولها لها.

قالت الحاجة حسنى وهي تخرج من حقيبتها السوداء أوراقاً مالية

ملفوفة في منديل وضعتها تحت الفراش تأدباً مع الشيخ:
- عا يحفظكم الباري، الله عا يكتب لكم الأجر.

نهض الشيخ هلال من مجلسه كما ينهض البعير، ثم خرج من الغرفة ذات البابين وغاب قرابة الخمس دقائق.

شعرت أروى بالانقباض والقلق، ورغبت في الانصراف، وحدثت أمها بهذا الخصوص، إلا أن الحاجة حسنى رفضت بصورة قاطعة. كانت الأخيرة مبهورة بالشيخ هلال، ولولا الحياء لباست يده تبركاً. عاد الشيخ هلال ومعه طست معدني وقارورة ماء، وطلب من أروى أن تمد رجليها فوق الطست، ثم راح يتلو القرآن غيباً وفمه على فتحة القارورة التي انفغم عنقها ببخار أنفاسه الحارة.

أحست أروى بالرهبة وتصبب العرق من جبينها وإبطيها، وبذلت جهداً خرافياً لتسيطر على مخاوفها وتمنع أطرافها من الارتعاش.

أنزل الشيخ هلال القارورة وتوقف عن التلاوة وغمغم بدعاء مبهم، ثم أمر الحاجة حسنى أن تكشف عن ساقي ابنتها إلى الركبتين، ففعلت دون تردد.

سكب الشيخ هلال مقداراً يسيراً من الماء في كفه اليمنى، ثم مسح بها على ساقي أروى الجميلتين المكسوتين بزغب أشقر خفيف، وتأوه رغم إرادته، لأنه شعر بمتعة مفرطة في حلاوتها، فلا شيء عنده يضاهي لذة تلمس ساقي فتاة عذراء امتزجت فيهما نعومة الأنثى وخشونة الغلام كأجمل ما يكون.

احتجز منير في مبنى البحث الجنائي بانتظار نتيجة الفحص، وتحسباً لضياع الوقت فقد أحضر معه كتاباً قرمزي الغلاف تزينه صورة ناسك من التبت وعنوانه «حياة مايلا ريبا» ترجمة د.عبدالوهاب المقالح، وراح يقرأ:

القوى العليا الخارقة للطبيعة والتي يستطيع اليوقي الحق أن يظهرها لتلاميذه خاصة، ومن أجل فائدتهم بالذات، لكنه لا يعرضها أبداً لمجرد إرضاء الجمهور المحب للاستطلاع، حتى عندما يُتحدى بالإنكار وعدم التصديق، كما أنه لا يظهرها أبداً بغرض التكسب. وبها يمكن التفريق بين شخص حقيقي، معلم، وبين مشعوذ صوفي أو دجال يوقي. تلك القوى الخارقة قد حظيت بالتصديق عبر العصور لدى أشخاص ثقاة.

وهي تُنال بتدريبات التحكم بالعقل، وتعرف فقط بأشكال خفيفة ونادرة جداً في الغرب باعتبارها مواهب طبيعية لدى القليل من النساء والرجال، الذين يمكن أن يصيروا معروفين بين الناس كوسائط، أو أنهم قد يكونوا جد خائفين من قدراتهم تلك إلى حد أنهم يقمعونها ويفضلون ألا يفكروا بها مجرد تفكير. لا يضحكنّ القارئ بتعال على ما دوّن في قصة مايلا ربما من أحداث، من مثل قدرته على الطيران، أو التأمل دون نوم، أو أن يقطع رحلة شهرين في ثلاثة أيام، أو أن يظهر نفسه في أماكن متعددة في وقت واحد كما فعل في رحلته الأخيرة إلى تشوبرا. فهذه وغيرها من القدرات الخارقة للمألوف لا زالت ممكنة لليوقيين المدربين المتحكمين بأنفسهم، والذين صارت لهم قواهم التركيزية راسخة. فتعديل معدل النبض، وتوقيف نبضات القلب، وحجز النزيف بعد إحداث جرح عميق عمداً ثم شفاء الجرح في ظرف قصير بعدها، كل هذه الظواهر مشاهدة ومدروسة من قبل الأطباء الغربيين والشرقيين على حد سواء، أطباء طالما أنكروها ثم توقفوا إزاءها حائرين بعد أن عاينوها رأي العين.

وتابع منير قراءة الكتاب بشغف ولم ينتبه لمرور الوقت إلا عندما فتح الجنود باب الزنزانة ونادوه باسمه، فطوى طرف الصفحة التي وصل إليها وخبأ الكتاب في جيب معطفه الواسع، ثم نهض ومشى معهم.

كان يحس بجسده خفيفاً كالريشة، وبروحه تطير متنقلة بين السحاب.. لقد تركت سيرة الناسك البوذي في نفسه أثراً عميقاً مس شغاف قلبه، وتمنى لو أنه أدرك القرن الحادي عشر الميلادي

ليتتلمذ على يد مايلا ريا العظيم نفسه.

أُدخل إلى حجرة واسعة يشغل نصفها مكتب ضخم مترامي الأطراف، جلس خلفه كهل أشمط بدين، مفتول الشاربين، بدا شارداً يحملق في الأوراق الموضوعة أمامه بذهول.

مرت دقائق ثقيلة قبل أن يرفع العقيد رأسه وينظر إلى منير بإمعان حيث ظل يرقبه بتركيز حاد وكأنما يستقرئ ملامح الشاب الواقف أمامه. قال وأصابعه تمسد شعيرات حادة كالدبابيس نمت تحت شفته السفلى الغليظة المتهدلة إلى الأسفل:

- تشتي تعرف نتيجة الفحص؟

تحامل منير على نفسه واصطنع ابتسامة واسعة:

- أكيد.

نقر العقيد بسبابته على سطح المكتب مفكراً وفي داخله شعور مبهم بغرابة ما يحدث:

- مع الأسف يا أخ منير نتيجة الفحص طلعت مطابقه.

التوى فم منير من المفاجأة وتحركت عضلات وجهه بانزعاج:

- مستحيل.. أكيد حصل غلط في الفحص.

قال العقيد وقد تصلبت ملامحه وتوترت:

- لا يمكن.. المعمل الجنائي بيأكد إن سائلك مطابق لآثار السائل الذي لقيوه على ملابس القتيله ثايره عبدالحق محمود.

كز منير على أسنانه وأحس بدوار رهيب يضربه فترنح في وقفته.
ضغط العقيد على زر الجرس ففتح الباب وأطل منه جندي أدى التحية وهز الأرضية بخبطة قوية من قدمه. قال العقيد محاولاً التغلب على عواطفه والظهور بمظهر خشن:
- خذه إلى الحجز.

أمسك الجندي بمنير من ساعده واقتاده خارج المكتب، وما كادا يسيران بضع خطوات حتى سقط الأخير مغشياً عليه.
وهبط الظلام سريعاً وسكن السجن.
تسلل نور نصف القمر من بين قضبان كوة صغيرة، فرآه منير وأجهش بالبكاء وكأنه مفارق لأعز أحبابه.

وبجواره في ذات الزنزانة كان سجينان يلعبان الكوتشينة، وآخر مستلق على ظهره يهذي بكلام غير مفهوم ويده تعبث بسوستة بنطلونه ذهاباً وإياباً، وثلاثة - يبدو أنهم إخوة - نائمون ويشخرون بسعادة بعد أن غسلوا عارهم بالدم.

وفي ساعة متأخرة من الليل كان منير مسهداً عندما تدفق ضوء غزير قوي اللمعان من الكوة أنار الزنزانة وكأنها مكشوفة بلا سقف لشمس الظهيرة، وشعر بموجة ضغط عاتية رفعته في الهواء وقلبته على بطنه وكأنه قشة في مهب ريح شديدة، أعقب ذلك صوت دوي هائل لم يسبق أن سمع مثله، واستيقظ جميع السجناء وجلين مضطربين، وفي الصباح تبين أن حياً قريباً من السجن تعرض لضربة.. صاروخ سكود مرسل مع التحية من قاعدة العند الجنوبية.

كانت الصالة مفتوحة النوافذ، والغبار يكتسح كل شيء أمامه كجيش منتصر، وضوء الشمس يسطع حيناً وحيناً يخفت عاكساً التقلبات السريعة في مزاج السحب.

تقدم الصغير عمر حاملاً فناجين القهوة، فلاحظ الضابط سيف بسهولة أن يديه كانتا ترتعشان.

قال علي جبران الذي أخذ فنجانه وراح يرتشف القهوة رغم أن البخار الساخن كان يتصاعد منها:

- سمعت إنكم مسكتم ولد مسكين معه حانوت كتب ورحلتوه للسجن؟

ركز الضابط سيف بصره على الصغير عمر حتى غاب:
- نعم، المعمل الجنائي أثبت أن..

قاطعه علي جبران بسرعة لافتة:
- قد عرفت بالخبر.

فكر الضابط سيف أنه لا محالة من الهجوم فقال وقد وضع على وجهه قناع البشاشة:
- هذا الأخبار بتوصلك أول بأول ويمكن قبلي!

ضحك المساعد عبيد على ما يفترض أنه نكتة، لكن علي جبران رد بوقار وهو يضغط على كلماته:
- ما تنساش يا فندم إن لي أقارب في مناصب هامة في الدولة.

تبادل الضابط سيف مع مساعده نظرات التحدي، فقال الأول بصوت عميق نابع من أطراف صدره:
- لكن أقاربك المهمين هولا ما قدروش يمنعوا زوجتك من مخالطة شاب في مثل سنها؟

وضع علي جبران فنجانه على الطاولة بغضب، وقال وريقه يتطاير من فمه في كافة الاتجاهات:
- احترم نفسك.. زوجتي ميتة وأنا لا أسمح لأحد إنه يقول عنها هذا الكلام.

تراجع الضابط سيف بظهره إلى الوراء وقال بهدوء:
- أنا معك، لكن ملابسها بتأكد الموضوع!

وقف علي جبران ووجهه محمر يكاد الدم ينبجس منه وصاح فيهما:

- بطلوا هذا الغمز واللمز، زوجتي أشرف من أمهاتكم.. وما حصل لها اللي بتقول عليه إلا وهي ميتة.. ما لهاش ذنب فيه.. حرام عليكم.

تركهما وصعد إلى الأعلى وهو يمسح عينيه. نهضا بتثاقل وأحسا أنهما استفزا مشاعره وطعناه في صميم كبريائه.

خرجا من السكن إلى الحديقة، ووقفا في مساحة ظليلة وتأكدا من خلو الجو.. قال الضابط سيف بعد برهة تأمل:

- ما رأيك في ذيك الولد الصغير؟

رد المساعد عبيد وقد أثر فيه حزن الشيخ على زوجته المتوفاة:

- صورته عارف بشي الله أعلم ما هو.

رد الضابط سيف متخيلاً مخزون الأسرار الذي سيكون بحوزته:

- حرر له استدعاء للقسم.

قال المساعد عبيد وثمة قلق خفيف ينبعث بداخله:

- حاضر.. لكن هل لاحظتوا التهديد المبطن الذي وجهه لنا علي جبران؟

ابتسم الضابط سيف بنصف فمه وحك أذنه:

- آه.. مقصدك تلميحه لى أقاربه الكبار في الحكومة؟

- نعم.

- ما يهمش..

تزايد قلق المساعد عبيد من سطوة الأشباح التي عرفها في قضايا سابقة، قال وقدمه تنكث الأرض تضايقاً من مهنته التي لا تجلب له إلا المتاعب:

- هل توصلتوا لى قناعة بشأن هوية القاتل؟

ازدرد الضابط سيف ريقه وفكر عدة مرات في الجواب ثم قال بصوت هامس:

- كل الاحتمالات واردة، لكن أنا شخصياً أرجح إن منير عاشر القتيلة ثايره قبل مقتلها بخمس أو ست ساعات، وأظن إن علي جبران اكتشف العلاقة فثأر لشرفه وانتقم منها.
- وللمه ما يكون منير نفسه هو القاتل؟
- منير ما بش عنده دافع للقتل.

تابع الضابط سيف وهو يتمشى الهوينى وبصره مثبت على الأرض:

- وما تنسى إن علي جبران مصاب بمرض قضى على رجولته.. ومعنى هذا إن دافع الجريمة نشأ من أول ليلة دخلت ثايره لى بيته وعجز عن معاشرتها.

قال المساعد عبيد متخيلاً ثائرة ليلة زفافها بالملابس البيضاء تبكي بصمت على حافة السرير بينما زوجها الشيخ يشخر نائماً:

- إذاً علينا استجواب الولد عمر ونركز الأسئلة على علاقة علي جبران بمرته.. أنا متأكد إنه عا يقول لنا على حوادث كانت تحصل بينهم يمكن تفيدنا وتكشف لنا خبايا كثيرة.

رد الضابط سيف وذهنه يتخيل سيناريوهات متعددة لكيفية وقوع الجريمة:

- لا تأمل كثير على الولد الصغير.. أكيد علي جبران عا يحذره من الكلام.. في تقديري المساعدة الأهم والحاسمة عا نلقاها من منير.. لأنه مضطر يتكلم لأجل ينقذ نفسه من الإعدام.
- إذاً ما رأيكم نسير غدوه للسجن نستجوبه؟

ابتسم الضابط سيف ولعق شفتيه وتحرك صوب البوابة:

- تمام، وقده على الطريق نبسر الدفعة الجديدة من المسجونات!

فتح لهما الحارس الشيبة الباب وحياهما مقلداً تحية العسكر التي لم ينجح طيلة نصف قرن في إتقانها، ثم أغلق الباب عقب خروجهما.

وعلى الفور أطل علي جبران والصبي عمر من نافذة غرفة النوم بالطبقة الثانية وهما واجمان.

غطس الأفق الغربي في بركة دماء، ومن الجهة الأخرى حرن القمر وأبى الارتقاء، وعلى الأرض سعى رجلان إلى بيت شعبي في طرف الحارة، مهدم وقبيح المنظر يوحي بفقر أصحابه المدقع.

جلس الجزار متربعاً على فراش إسفنجي رث، وراحت أم زينب التي ارتدت فستانها الوحيد الخالي من العيوب ترحب به وتكرر ترحيبها مرات وكأنها فقدت صوابها.

كوّم الجزار علب الهدايا المتنوعة الأحجام في وسط الغرفة بطريقة استعراضية، وقال وأصابعه لا تكف عن تلمس بذلته الإفرنجية الأكبر من مقاسه وربطة عنقه الحمراء الفاقعة:

- إن شاء الله ربنا يتمم علينا بخير ونقع أسرة واحدة.

قالت أم زينب وقد لفت انتباهها ساعة ذات ميناء ذهبي ضخم تزين معصم الضيف:

- كل شيء بالنصيب يا ابني.

قال الجزار وعيناه تمسحان أثاث الغرفة الهزيل وقد أيقن في نفسه بأنه يعد صيداً ثميناً بالنسبة لهذه العائلة التي فقدت معيلها في المهجر وصارت تعيش على الكفاف:

- أنا متأكد إن زينب عا تكون من نصيبي.

قال عم زينب الضئيل البنية الذي يبدو رأسه شبيهاً برأس كتكوت مضروب موجهاً كلامه بصيغة الأمر لأرملة أخيه:

- توكلي على الله يا أم زينب وسيري لى عند البنت وشاوريها ولا ترجعي إلا ومعك البشارة.

أخذت أم زينب الهدايا من الأرض وهي مرتبكة وسيقانها تخبط بعضها ثم غادرت الغرفة.

فطن الجزار إلى ما في شخصية حماة المستقبل من ضعف ومسكنة فازداد فرحه وأشرقت أساريره، ثم تذكر وعده للجالس جواره، ورأى أن الفرصة مواتية فأخرج من جيب المعطف رزمة أوراق مالية من فئة العشرين ريالاً ودسها في كف عم زينب:

- خذ هذه دفعة أولى تحت الحساب، وبعد العقد لك مثلها.

طرف عم زينب ببصره وتجمدت أطرافه:

- الله يبارك لك في رزقك يا عزيز، منك المال ومنها الرجال.

خبأ عم زينب الرزمة في جيبه الداخلي بحرص ثم قبل كفه شاكراً الله على ما وهبه من رزق. وشرد الجزار عزيز بفكره متذكراً مواقفه مع زينب وبالأخص إشارته البذيئة التي جعلت الأخيرة تبصق في وجهه، فهز رأسه مؤكداً لنفسه أنها كانت علامة خير!

وفي الغرفة المجاورة رفست زينب علب الهدايا في كل اتجاه من شدة الهياج وكشرت عن أنيابها، بينما انزوت ثلاث صبايا متدرجات الأعمار في ركن الغرفة خائفات وبأيديهن كتبهن المدرسية يراقبن المشهد بحياد.

قالت زينب مقطبة الجبين وهي تزعق في وجه أمها:

- يا مه أنا لا يمكن أتزوج هذا الجزار مهما حصل حتى ولو خلت الدنيا من الرجال.

همست أم زينب في محاولة يائسة لتهدئة ثورة غضب ابنتها:

- يا بنتي افتحي الهدايا بالأول وبعدها احكمي.

فتحت زينب الشباك وراحت ترمي الهدايا:

- ما اشتيش حقه الهدايا ما اشتيش.

دفعت الأم بصغرى بناتها إلى الشارع وراء الهدايا لاستعادتها، وقالت بلهجة متوددة:

- أبوها الهدايا.. انتي داريه إنه قال عا يدي لك مهر ثلثمية ألف؟

صاحت زينب بجفاء وقد اربد لونها وارتعشت أطرافها من الانفعال:

- أنا مش بقرة يشتريني هذا الجزار ويضمني لى حقه الزريبة.

قالت الأم محاولة الإطباق بكفها على فم زينب:
- أصه.. الناس بيسمعوا.

ابتعدت زينب عن أمها وقد تشاكستا بالأيدي:
- يا الله قدكم عا تحكموا علي من ذلحين أغض صوتي واتحاكى دلا لأجل هذا الجحش !
- يا بنتي هذا الجحش الذي مش عاجب لك وعد إذا تزوجتيه إنه يرسل لخواتك كيلو لحم يوميه.

كانت الصبايا الثلاث يتابعن الحوار بدقة، وإحداهن كانت تلحس شفتيها، وواحدة أخرى تبلع ريقها.

لاحظت زينب بهلع التغير الذي أصاب أخواتها لدى سماعهن بنبأ اللحم، فقالت وقد انكسر صوتها وطافت دمعة قهر بعينيها:
- يا مه هذا اللحم الذي عا يرسله لكم هو عا ياخذه من لحمي..

تهربت الصبايا الثلاث من نظرات أختهن الكبرى ودسسن رؤوسهن في الكتب، تابعت زينب متحشرجة بالبكاء:
- هل يرضيكم إنكم تاكلوا من لحم اختكم؟

هبت الأم للقول قبل أن تتدفق دموع زينب وتكسب الجولة بإثارة العواطف:
- خواتك ما يرضيهن هذا الخبر لكن أنا أشتي أسألك، انتي

تشتي تقدمي لحمك لمن؟ لصاحب المكتبة منير الذي اتهموه بقتل مرة علي جبران وقالوا إنه استفعل فيها؟ هل هو هذا الذي تشتي تتزوجيه؟ جاوبي..

سالت دموع زينب وقالت بصوت مضعضع مهتز:

- منير مظلوم، أنا متأكدة..
- وهل قال لك منير هذا إنه عا يتزوجك؟ أو حتى لمح للموضوع؟

ردت زينب بصوت لا يكاد يسمع وهي تتهرب من نظرات أمها الثاقبة:

- لا.
- كان للمه تتعلقي بوهم؟ لو كان حق زواجه كان قد طلبك من زمان.
- منير ظروفه صعبة وهو..
- هو قده منتهي.. بكره بعده عا يعدموه، ذلحين ما نقول للخاطبي؟ الرجال في الغرفة الثانية مراعي نرد له جواب؟

قالت زينب وقد بلغ بها الإجهاد العصبي مداه:

- قولي له ما بش نصيب.
- عا تندمي يا بنتي.. عزيز رجال مقتدر وهو أفضل لك من غيره، اسمعي نصيحتي واغنمي الفرصة!

ردت زينب بتصميم وحاجباها معقودان:

- لا.

قالت الأم وهي تضع قدماً خارج الغرفة:

- أنا عاد أقول لهم إنك تشتي اسبوع تفكري في الموضوع.

سكتت زينب لتتجنب حجاج أمها التي خرجت وهي تدعو لها بالهداية.

ظلت دقيقة صامدة كجلمود، ثم انفجرت دفعة واحدة تنتحب بحرقة وقهر وهي تمرغ وجهها في وسادة بالية محشوة بنفايات يصعب حتى تصنيفها.

وفي تلك الليلة لم يتساءل أحد عن سر اختفاء النجوم من قبة السماء.

لاحظ الضابط سيف أن لحية منير قد طالت وبرزت عظام وجنتيه وبدت عيناه جاحظتين وغزت أرجل الغراب جفنيه وظهرت حبوب حمراء في أجزاء متفرقة من جسده.

كانت غرفة التحقيق مضاءة بقنديل أصفر ضعيف ولا نوافذ لها وسقفها واطئ، فاستنتج منير أنه الآن يقبع في أقصى نقطة تحت الأرض.

فتح المساعد عبيد سجل المحاضر وأخرج القلم السائل من جيب البنطلون وراح ينفخ في أنامله ويطقطقها ليجعلها مرنة، وفكر في نفسه أن السجناء محظوظون في أوقات الحروب، فلا أحد يبدد ذخيرته لاقتطافهم، وشعر بالحسد تجاه منير الآمن على حياته في

السجن من غدر صواريخ الـ سكود.

طلب الضابط سيف من منير أن يجلس، ثم راح يرتشف الشاي بتؤدة محاولاً تعديل مزاجه العكر:

- متى بدأت علاقتك بالقتيلة ثايره؟
- من سنتين تقريباً، وهي علاقة بايع بزبونة عادية مداومة على شراء المجلات.
- ما تطورتش هذه العلاقة؟
- لا.
- هل قامت بينكم علاقة غير شرعية؟
- لا.

رفع الضابط سيف ورقة وكاد يلصقها بوجه منير:

- مه! وكيف تفسر وجود آثار سائلك .... على ملابس القتيلة؟

تنهد منير من أعماق صدره وغامت نظرته:

- مدري.

صرخ الضابط بانفعال وقد تأجج غضبه من مظاهر البلاهة التي أبداها المتهم:

- كيف ما تدريش؟ أو أنت تظن إن حقك المني ساع حبوب اللقاح بينتقل من مكان لى مكان بالرياح؟ والله صحيح إنك إنسان ما تستحيش تمشي من غير كلسون!

- أنا محتار أكثر منك وأدور على من يفسر لي هذه الظاهرة الغريبة.

انطفأ غضب الضابط سيف فجأة وكأنما هو جمرة سكب عليها ماء بارد وقال بصوت مندهش:

- أين الظاهرة الغريبة؟

قال منير وقد اتكأ بمرفقيه على سطح المكتب وخبأ وجهه بين كفيه النديين:

- أنا ما لمست المرحومة ثايره في حياتي أبداً، ورغم هذا انتقل إليها سائلي بطريقة ما وراء طبيعية ما يصدقهاش عقل عاقل.

فكر الضابط في نفسه أن منير يحاول الظهور بمظهر المختل عقلياً لينجو من العقاب، قال وهو يخاطب مساعده مبتسماً بخبث:

- اسمع يا عبيد اسمع.. الخبير يشتي يستغفلني، يشتي يضحك على دقني، وما باقي إلا يقل إن مخلوقات فضائية هي اللي نقلت حقه المني لى ملابس القتيلة!

أشفق المساعد عبيد على منير وقال ناصحاً:

- من الأفضل لك يا منير إنك تعترف بالعلاقة مع المقتولة، لأنه في هذه الحالة يمكن تطلع براءة ويقع الاتهام على زوجها علي جبران الذي عنده دافع مهم للقتل وهو الثأر لشرفه.

قال الضابط سيف وهو يعبث بأظافره مظهراً لامبالاته:

- لكن إذا أنكرت علاقتك بالقتيلة وقمت تحاكيني بالخزعبلات اللي ذكرتها قبل قليل فاعرف أن مصيرك هو الإعدام.

قال المساعد بلهجة مخلصة:

- اعترف بعلاقتك غير الشرعية مع ثايره وخلّص نفسك من الإعدام.

قال منير والدموع تترقرق في مآقيه:

- صدقوني يا جماعة أنا مش كذاب، ثايره الله يرحمها كانت من أشرف النساء اللي قابلتهن في حياتي.

تحرك الضابط سيف في كرسيه بقلق وقال وقد نفد صبره:

- صورتك أخبل يا منير، إذا أصريت على الإنكار فالتهمة عا تلبسك وتضيّع نفسك.

قال المساعد عبيد بصوت هامس وكأنه يكشف سراً:

- إحنا عندنا شكوك كثيرة حول علي جبران، وإذا أنت ساعدتنا واعترفت فيمكن نقدر نحقق العدالة ونقتص من القاتل.

قال منير بعد برهة صمت بصوت جاف وحاسم:

- مستحيل أكذب من أجل أنقذ نفسي، ثايره طاهرة ومش ممكن أرميها بالحرام وهي ميته، أنا عاد أقول الحقيقة بحذافيرها واللي يحصل يحصل.

تبادل الضابط سيف ومساعده نظرات الانتصار، قال الأول وقد عاد التفاؤل إلى وجهه:

- جميل.. إحنا نسمعك.

سحب منير نفساً طويلاً وحك أنفه الذي احمرّ قليلاً:

- أحياناً أبسر في المنام إن أنا عريس وجنبي بنت حاليه واحنا وحدنا في غرفة النوم وبعدها أقوم بالواجب.

لمعت عينا الضابط سيف ودبت الحيوية في عروقه:
- الله.. جميل وبعدها؟

قال منير وقد أصبح وجهه قرمزياً من الخجل:
- بعدها أصحا من النوم وما الاقيش حاجة على ملابسي.

قال الضابط مبهور الأنفاس:
- آه كمّل.
- ليلة مقتل ثايره أبسرت حلم إن أنا تزوجتها ولما قمت من النوم ما لقيتش الأثر وتبين إنه ظهر على ملابسها.

أصيب الضابط بالإحباط وتهدل شارباه:
- هل هذا هو دفاعك ضد الدليل المادي اللي لقيناه على ملابس القتيلة؟
- نعم.. هذه ظاهرة خارقة للعادة، والمؤسف إنه ما يمكنش إثباتها علمياً.

رد الضابط سيف ساخراً:
- عال.. لو كان إنشتين بخير كان يمكن يفيدنا في حالتك هذه، ولكن المشكلة إنه ميت، وما بش حل إلا نسير لى عند المشعوذ هلال يفتينا في احتلامك المتطور هذا الذي يشبه الفاكس!

قال منير وقد بدا الارتياح على ملامحه وكأنه أزاح عن كاهله حملاً ثقيلاً:

- أنا قلت الحقيقة كاملة وانتو أحرار تصدقوا وإلا ما تصدقوا.

قال المساعد عبيد وقد بدأ يتشكك في قوى منير العقلية:

- هل أنت واثق من كلامك؟ هل معقول إنك كنت تعاشر ثايره بالمراسلة؟

التفت منير إلى المساعد عبيد وقال بلهجة صادقة وعيناه تتوسلان التصديق:

- صدقني أنا ما كنت داري إن أحلامي الليلية بتترك آثارها في أماكن بعيدة !

ابتسم الضابط سيف بمكر وختل:

- يا وغد بتوفر على نفسك النفقات وتعاشر النسوان بالمراسلة؟؟

رد منير وقد ارتفع حاجباه وتسارعت نبضات قلبه خوفاً من أن يعاقب على ما كان يراه في أحلامه:

- حصل هذا بغير علمي أو إرادتي.

بصق الضابط سيف تحت قدميه، ثم قال وهو يشعر بخيبة أمل كاملة:

- هل تظن إن المحكمة عا تصدق هذا الكلام الفارغ؟

خيم حزن عظيم على منير وارتعش فكه السفلي، وجهد قدر استطاعته ليسيطر على نفسه:

- مش مهم.. المهم إن أنا قلت الحقيقة.

رجع المساعد عبيد بظهره للوراء، تنهد، ثم قال مشفقاً:
- فكر، ما تزال أمامك فرصة لتغيير أقوالك وتنقذ روحك من الهلاك.

نظر منير إلى البعيد وأخذ نفساً عميقاً:
- ما بش عندي أية أقوال أخرى.

في اليوم التالي استخرج الضابط سيف إذناً رسمياً بفتح مكتبة منير وتفتيشها بحثاً عن أدلة جديدة. وفي مساء اليوم نفسه وقفت سيارة شرطة أمام الباب الأزرق وقام جندي يحمل مقصاً حديدياً كبيراً بقص القفل وفتح ضلفة واحدة، فدخل الضابط ومساعده، وأمضيا قرابة الساعة والنصف في التفتيش الدقيق في رفوف وأدراج المكتبة، وبعد لأي عثر المساعد عبيد على مجلد أحمر اللون كان مخبأً في قعر دولاب العرض تحت الدرج الأسفل وناوله للضابط سيف.

قرأ الأخير عنوان المجلد «سجل المنامات» فأثار على الفور اهتمامه، وتصفحه بسرعة متنقلاً من مقطع لآخر، وأدرك أنه حصل على كنز ثمين، قد يكشف له التفاصيل الخفية لجريمة القتل المدوّخة التي يحقق فيها.

انقطع طيران الجنوب عن التحليق فوق أجواء المدينة منذ سقوط مطار عتق بيد القوات الشمالية، فعادت الحياة إلى طبيعتها، وتلألأت أنوار الشوارع والمنازل في الليل، واكتظت المطاعم والأسواق من جديد بالزبائن.

حمل الضابط سيف المجلد الأحمر الذي عثر عليه في مكتبة منير واتجه إلى مكتبه في قسم شرطة الحلقوم. كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، وكان هذا تقريباً هو الوقت المفضل لديه للعمل.

أخرج من تحت المكتب ثلاجة وفنجاناً، وسكب لنفسه شاياً ارتشفه على مهل، ثم فتح المجلد وبدأ يقرأ من الصفحة الأولى، وكان بين

الحين والحين يدون في مفكرة جيب بعض الملاحظات.

دقت الساعة ثلاث مرات، وبدأ بعض المؤذنين بالتهليل والتسبيح من ميكروفونات المساجد، وخرج مجنون مطوع يزعق في الشارع يدعو الناس إلى صلاة الفجر .

كان الضابط سيف يترنح من النعاس ويتثاءب بكثرة، ويحس بعينيه تحرقانه من السهر، رغم أنه ازدرد كل ما في جوف الثلاجة من شاي، ففكر وقد دهمه الإعياء أن يكمل قراءة المجلد في الليلة التالية، وتخيل نفسه قد قطع المسافة إلى بيته في ثانية واحدة وأنه مستلق على سريره الوثير وقد أخلد لنوم عميق.

قلّب الصفحات في آخر المجلد في محاولة لحساب كم من الوقت سيستغرق في قراءتها غداً، ووقعت عينه على كلمات مثيرة فاسترسل في القراءة وقد طار النوم من أجفانه وشعر بطاقة جديدة تدب في بدنه:

ليلة الأمس رأيت في المنام أنني في حفلة عرسي وقد زفت إلي أروى التي تشتغل ممرضة في الوحدة الصحية، وكان جو العرس بهيجاً ومن حولنا طبل وزمر وغناء وزغاريد تلعلع في آفاق السماء، والأطفال يصمون الآذان بصراخهم وصخبهم، والألعاب النارية ترافقنا في كل خطوة، وفتيات صغيرات يقذفننا بالفل والياسمين والرياحين، واثنتان منهن تسيران أمامنا وهما تحملان شمعتين بقامتهما، ومضت الزفة بطيئة حتى وصلنا إلى منزلي المتواضع الذي كان مزيناً بقناديل صفراء، وودعت عند الباب عمي عياش وعمتي، وكذلك فعلت

أروى التي بكت كثيراً وهي تودعهما، ثم دخلنا البيت وقدتها إلى غرفة النوم وكان أول شيء فعلته هو أني أغلقت بابها بالمفتاح!

جلست على حافة الفراش القطني ووجهها محمر من الخجل وعيناها لا تفارقان الأرض، خلعت ثيابي وبدأت.. وفي أول الأمر أظهرت مقاومة يسيرة، ثم استسلمت وتركتني أفعل ما أشاء..
حاولت وحاولت ولكن لم أفلح، كان أمره ميئوساً منه.

خرجت من غرفة النوم وقد ارتديت بذلتي كيفما اتفق، ووجهي يعكس انكساراً مزرياً وعضلاته ترتعش من أثر الصدمة، سرت قليلاً في الصالة ثم جثوت على ركبتي وانخرطت في النشيج.

لقد حاولت طيلة ثلاث ساعات أن أكون رجلاً مع أروى ولكنني فشلت، خرجت من عندها مأزوماً مهزوماً أبحث عن أغور مخبأ لأندس فيه، وأحسست نحوها بكراهية شديدة، وربما لو أتيحت لي الفرصة لكنت قتلتها.
انتهى الحلم.

وضع الضابط سيف المجلد الأحمر على سطح المكتب، وأخذ يلف ويدور محللاً ما وراء الكلمات، وراح يسترجع معلوماته التي سمعها حول (علم نفس الإجرام وتذكر ـ دون أن يعرف من القائل ـ أن الأحلام تفضح الرغبات المكبوتة عند الإنسان.

بصق تحت قدميه ثم واصل القراءة:

رأيت في المنام أنني أقمت حفل عرسي في فندق عدن موفنبيك المطل على البحر، كنت جالساً على كرسي وثير، وعلي بذلة جديدة من أجود الأقمشة الإنكليزية، وبجواري جلست زينب المدرّسة السمراء اللذيذة وقد ارتدت ثوباً أبيض يكشف يديها وكتفيها وجزءاً من الصدر إلى منبت ثدييها.

كان أخواتها الثلاث يرقصن على أنغام الموسيقى الغربية الصاخبة السريعة برشاقة وخفة مدهشتين، وكانت أم زينب في أول القاعة تستقبل المدعوين وترحب بهم وتشير عليهم بالجلوس، وفي الطرف كانت الفرقة الموسيقية تجهد نفسها في محاولة بطولية للحاق بالمغني الشاب الذي كان يصول ويجول بين المدعوين ويبدل الأغنية بحسب الطلب.

الجرسونات بملابسهم الرسمية كانوا يطوفون بين الطاولات، يوزعون المقبلات والأطباق الدسمة والحلويات والمثلجات، وفي غفلة من الجميع أمسكت بزينب من معصمها وتسللنا خارجين من القاعة وصعدنا إلى الجناح المحجوز لنا، كنا نضحك لأننا استغفلنا الحضور الذين سيفاجأون بخلو المنصة من العروسين وسيسقط في أيديهم!

كنت أقفز في الهواء من فرط السعادة، وبسرعة البرق وكما يحدث في أفلام المطاردات دخلنا الجناح ورحنا نخلع ملابسنا ونحن نلهث قبل أن يأتي أحد للسؤال عنا.

ومضى الليل بأكمله ولم أنجح في إنعاشه، خذلني لعنه الله مرة أخرى.

أغلقت الباب خلفي بعنف مصطنع وكأنما أثأر لرجولتي المهانة، واتجهت صوب المصعد وهبطت إلى الأسفل، رأيتني في المرآة فانتابني حقد مجنون على نفسي، فحطمتها بقبضتي حتى اختلط الزجاج المتناثر بدمي.

دخلت المطعم الذي كان خاوياً وشبه مظلم، وجلست إلى أقرب طاولة، وسحبت منديلاً لففته على أصابعي الجريحة، ورأيت أدوات المائدة تلمع في عيني.. الملعقة، الشوكة، السكين.

انتابتني مشاعر متضاربة، ثم وجدتني آخذ السكين وأخبئها في جيب معطفي، وفي لحظة عدت أدراجي وقد نويت تقطيع زينب إلى قطع صغيرة ومن ثم التخلص منها في المرحاض وعلى دفعات.

وحين وصلت إلى السرير ورأيت وجه زينب الملائكي البريء وهي نائمة آمنة ارتعشت يدي التي كانت تمسك بالسكين وخارت عزيمتي، وأحسست بفداحة خطئي وأنني آثم مجرم، وانحدرت من عيني دموع ساخنة مالحة، وسارعت بالتخلص من السكين في سلة المهملات.

لقد تراجعت في اللحظة الأخيرة عن ارتكاب جريمة قتل بشعة.

انتهى الحلم.

رفع الضابط سيف عينيه عن المجلد الأحمر، وفكر بأن منير ربما يكون قد حرّف رواية حلمه أملاً في ألا يتحقق بحذافيره، واستطاع أن يستشف من قوة الخط وجماله واستقامته مقدار المحبة التي كان المتهم يكنها لزينب بالذات.

عاود القراءة وهو يلمح نور الصباح الشاحب يتسرب من خلل النافذة:

رأيت في المنام أنني تزوجت بالسيدة ثائرة، رغم أنها متزوجة في الحقيقة.. كانت حفلة العرس في ميدان السبعين يوماً (ميدان العروض العسكرية) والمدعوون يتوافدون على متن المدرعات والدبابات، والفرقة العسكرية الموسيقية تعزف النشيد الوطني، والطائرات النفاثة تقوم بطلعات استعراضية، وكنت أنا وثائرة في المنصة نرفع أيادينا لتحية الجماهير، وعلي جبران ـ زوج ثائرة في الحقيقة ـ يتلو خطبة حماسية بصوت هادر كالمحيط والناس تلوح بقبضاتها في الهواء وتطلق الهتافات التي تصم الآذان، والسماء ترشنا بماء الورد.

وفجأة وجدت نفسي في مسكن علي جبران، في الصالة، ورأيت قاضياً بقاوق وشملة يضع يدي في يد علي جبران ويلقننا كلمات عقد النكاح، وحال تمامنا سكب الولد عمر ما لا يقل عن العشرة كيلوغرامات من الجوز واللوز والزبيب والفستق فوق كفينا، وتصارع المدعوون على الفوز بأكبر

كمية منها، فمنهم من ملأ جيوبه وفمه وكفيه، ومنهم من لم يدرك إلا حبات قليلة.

وزغردت النساء حين تعانقنا أنا وعلي جبران، وسمعت إطلاق نار كثيف في الحديقة ابتهاجاً بتمام مراسم الزواج، وبدأت فرقة شعبية تدق طبولها على إيقاع رقصة البرع، وتقافز الراقصون وقد أشرعوا الجنابي إلى الوسط، وسرعان ما تشكلت حولهم دائرة من النظارة، وأحسست بالأرض تهتز تحت قدمي.

أشارت الساعة إلى الثانية بعد منتصف الليل، وبدأ المدعوون بالانصراف، وكان علي جبران واقفاً عند الباب يودعهم، وعندما خرج آخر واحد منهم رأيته يرفع السبابة والوسطى بإشارة النصر وابتسامة عريضة تجلل وجهه، ثم خرج وأغلق الباب خلفه!

ابتسمت لثائرة ومازحتها وقرصتها، فهربت مني إلى الأعلى، خلعت معطفي وربطة عنقي وجريت خلفها، فتحت باب غرفة النوم، رأيتها ممددة على السرير وقد تغطت باللحاف، سمعت كركراتها المكتومة تنبعث من تحته، فأيقنت أني سأنجح معها، أطفأت النور وقفزت..

أذن المؤذن لصلاة الفجر ولم أستطع مجاوزة العتبة.. تركتها منهارة محبطة، ونزلت إلى الأسفل وليس علي سوى ثيابي الداخلية، كنت أتمنى لو أن أمي لم تلدني.

جلست على الكنبة ورأسي بين يدي، وشعور طاغ بالعار والخزي يجتاحني، وشيئاً فشيئاً تسللت إلي رغبة محمومة في الانتقام من جسد ثائرة الجميل الغض الذي قهرني ولم أتمكن من إروائه والتمتع بمفاتنه.

وقر عزمي على قتلها وتمزيقها وتشويهها أشد تشويه لكي يغيب إلى الأبد جسدها الذي هو كنز نفيس من اللذة.

ذهبت إلى المطبخ، أضأت القنديل، شربت ماءً صاقعاً، وبحثت في الأدراج عن سكين ذات نصل طويل، ووجدت واحدة ملائمة، سحبتها وصعدت إلى الأعلى.

دخلت على أطراف أصابعي إلى غرفة النوم، كان الضوء خافتاً، تقدمت ببطء نحو السرير والسكين خلف ظهري، رأيتها غارقة في سبات عميق متكورة على نفسها وأنفاسها منتظمة.

رفعت السكين في الهواء، وحاولت أن أهوي بها على رقبتها، أحسست بيدي لا تطاوعني، وبقيت يدي عالقة، وظل السكين يتضخم ويتطاول على الجدار.

انقلبت ثائرة على جنبها الآخر المواجه لي، وبرز ثديها من فتحة ثوب النوم الخفيف، ورأيت حلمتها السوداء نافرة تغري بالحب، وفكرت أنه من العبث أن أحرم طفلاً قد يأتي في

المستقبل من متعة مص هذه الحلمة الجميلة التواقة لشفتين صغيرتين ترشفان حليبها.

رميت السكين تحت السرير، وتنفست الصعداء، ولم أصدق حين أحسست بملعوني يعلن عن حضوره!

شعرت بسعادة غامرة لا توصف، وجرت دموع الفرح على خدي، وكنت على وشك الصراخ بملء حنجرتي وكأني انتصرت على أسد كاسر!

أبعدت اللحاف، فانتبهت ثائرة من نومها ونظرت إلي متسائلة وحاجباها معقودان، وبعد قليل عادت إليها ابتسامتها.

لقد نجحت أخيراً في إثبات رجولتي، لقد حدثت المعجزة وفعلتها!
شعرت وكأنني امتلكت العالم بأسره، إنه حلم لذيذ كم تمنيت لو أنني لم أستيقظ منه أبداً.

انتقل الضابط سيف ببصره إلى أسفل الصفحة حيث كتب منير بخط مخربش صغير جملة قصيرة بقلم الرصاص:
(في نفس الليلة التي رأيت فيها هذا الحلم قُتلت ثائرة).

أزاح الضابط سيف المجلد الأحمر جانباً، ونهض يدور في الغرفة محدثاً نفسه:
«الرغبات اللي ما نقدرش نحققها في الواقع نحققها في الحلم.. واضح إن منير كانت عنده رغبة جنسية قوية في ثايره، وأيضاً رغبة

عنيفة في تشويه جسمها وتدميره.. والظاهر إنه قد حقق رغباته المكبوتة في نفسه وقام في الحقيقة باغتصاب ثايره وقتلها».

جلس إلى مكتبه وفتح درجاً واستخرج منه قلماً، وراح يضع دوائر حمراء حول العبارات الدالة على رغبة المتهم في ارتكاب الجريمة مسبقاً، وقال في نفسه:
«لا بأس.. هكذا تكون قضية مقتل واغتصاب ثايره قد انتهت».

أعاد الضابط سيف القلم إلى مكانه، ووضع المجلد الأحمر في درج وأغلق عليه وتأكد من إحكام القفل، ثم نهض متمطياً، وأطفأ النور، وخرج من مكتبه وعلى شفتيه ابتسامة رضا مطمئنة.

أحيل ملف القضية على المحكمة، وبعد جلسات قليلة مقتضبة صدر الحكم بالإعدام.

وفي ميدان المعارك سقطت المحافظات الجنوبية واحدة وراء أخرى في قبضة قوات الشمال التي كانت مكونة من الجيش النظامي والميليشيا الإسلامية وطوفان القبائل.

كان الجيش النظامي بطيئاً في حركته، ومحكوماً بالأوامر الصادرة من القيادة العليا للجيش، ولذا تولت الميليشيا الإسلامية في معظم المواقع مهمة الاستطلاع والاقتحام والمبادأة بالهجوم، بينما كان الجيش النظامي ينتظر يوماً أو يومين ريثما ينجلي غبار المعركة، ثم يطور نسق الهجوم في المواقع ذات الدفاعات الضعيفة، وهذا ما

يفسر نجاح العسكر في تخفيض حجم ضحاياهم مقارنة بالأفواج التي أبيدت في ساعات من الإسلاميين المسلحين بأسلحة خفيفة.

وأما رجال القبائل فكانوا يشكلون مؤخرة الحملة، ومهمتهم الأساسية هي تصفية جيوب المقاومة، وحراسة الممرات والمواقع الاستراتيجية، والاستحواذ على غنائم الحرب..

وبسقوط قاعدة «العند» العسكرية ـ التي بناها السوفيات ـ بعد معارك طاحنة ومجازر من كلا الجانبين، توقفت صواريخ سكود عن التجول فوق مدن الشمال.

وحوصرت عدن بسبعين ألف جندي، وقطعت عنها الكهرباء والمياه، وأصبح نصف مليون نسمة يعانون من شبح الموت عطشاً.

تم تصديق حكم الإعدام على منير الوازعي من المحكمة العليا، وكما جرت العادة لم يخبر بشيء صبيحة إعدامه، وأخبر فقط أنه سيتم نقله إلى السجن الحربي، وعندما أخرج من السيارة المقفصة وجد نفسه في حارة الحلقوم جوار السوق، واقتاده العسكر بغلظة قريباً من السور.

قرفص على الأرض ويداه موثقتان، وتجمع حوله خلق كثير، وتركزت أنظار الألوف عليه، فأجهش بالبكاء وأدرك أن ساعة إعدامه قد أزفت.

توسط مندوب المحكمة العليا الحلقة، وأخذ يقرأ بصوت جهوري نص الحكم، وأصغى الناس في البداية باهتمام ثم لما طالت الديباجة

راحوا يلغطون حول التافه من شؤون الدنيا.

كان الجندي المكلف بتنفيذ الحكم يلف حول منير كالذئب وقد بدا عليه السأم. كان رجلاً نحيلاً، مفتول الشاربين، جاحظ العينين، له خطم حيوان مفترس، وما على عظام وجنتيه سوى جلدة رقيقة ممصوصة إلى الداخل، وكفاه بارزة عروقهما، وأظافر أصابعه معوجة وناتئة عن منابتها من الأطراف.

وحال انتهى المندوب من القراءة، تقدم ضابط شاب من منير وسأله عن رغبته الأخيرة؟ فلم يأبه لأن روحه كانت تحلق في البعيد، وتدور مولدة من ذاتها نوراً لطيفاً فائق العذوبة والجمال.

أمروه أن ينبطح على بطنه، فلما أدركوا أنه لا يسمعهم رفعوه في الهواء ثم مددوه برفق، وأطلق أحدهم صفارة فابتعد المندوب وتبعه العسكر عن دائرة الموت، وحبس الجميع أنفاسهم.
قام الجندي المكلف بالإعدام بلفة أخيرة حول الضحية، واقترب بخطوات وئيدة، ثم وقف فوقه مباعداً ما بين رجليه وفتح الأمان، وصوب فوهة البندقية الكلاشينكوف على بعد عشرة سنتيمترات من لحم الظهر المرتعش، وبعد أن حدد هدفه بدقة أطلق خمس رصاصات باتجاه القلب.

ابتلع منير حفنة من تراب الأرض، وأصدر آهة ألم لا تكاد تسمع، وانتفض جسده المحتضر عدة مرات، ثم أرخى رأسه بسلام.

ورددت حناجر العامة الإكليشة التي تقال في هكذا مناسبة:
«تحيا العدالة!».

وبسقوط عدن انتهت حرب صيف ١٩٩٤.

كان الشيخ محمد الدخيل ـ إمام الجامع الذي كان الصغير عمر يدرس عنده في حلقة التحفيظ ـ من أشهر قادة الميليشيا الإسلاموية الميدانيين، وهو يعد أحد أبطال معركة الاستيلاء على عدن، ولقد شاهد بعينيه ـ بواسطة المنظار ـ قادة الجنوب الكبار يفرون من عدن في قوارب مزودة بمحركات سريعة.

ولقد غنم كميات هائلة من السلاح المكدس في جبل حديد، وباعها لسماسرة الحرب وحقق لنفسه ثروة خيالية، كما أنه ربح ملايين الدولارات من الحكومة المنتصرة التي دفعت له ثمن كل الدبابات التي غنمها في طريقه من عقبة ثرة وحتى كريتر.

وعاد إلى العاصمة مكللاً بالمجد والسمعة الحسنة، وبانبعاج في الجانب الأيسر من جمجمته جراء إصابته بشظية في معركة وادي محفد، واستثمر ثروته في تأسيس مركز للدعوة والإرشاد، وكان أول عمل قام به هو اجتذاب الصبي عمر إلى جماعته، وجعله أميراً على جماعة أبي البراء، وهي خليط من الفتيان اليافعين جلهم أكبر سناً من عمر.

وأما الشيخ هلال ـ المعالج بالقرآن ـ فقد تاجر بأسلاك الكهرباء المنهوبة من الجنوب ونال ثروة صغيرة قرر استثمار جزء منها في مشروع تجاري مربح، وبعد مساومات طويلة مقرفة اشترى مكتبة «ملحمة السبعين يوماً» التي كانت لمنير الوازعي، وأطلق عليها تسمية عجيبة «دار الولاء والبراء» وأخرج منها الكتب الأدبية والعلمية والفكرية وقام بإحراقها، ثم ملأ رفوفها بالكتب الدينية التي تتحيز للمذهب الذي يؤمن به، واستغل المساحة المتبقية لبيع العسل وأشرطة الكاسيت الإسلاموية، ومن الملحق في الخلف كان يتاجر في المخطوطات.

وحل الخريفُ كئيباً مجدباً، وأصر عزيز الجزار أن يقام حفل العرس في مدينة عدن المفتوحة، وعرضت عليه عدة قصور أفراح، لكنه اختار المبنى الأزرق الجليل البنيان في حي التواهي الذي كان في السابق مقراً للحاكم البريطاني، واستدعى إليه أحبابه وأصحابه، وأولم لهم وليمة عظيمة تكدس فيها اللحم أكواماً، أكل منها الإنس والطير وسائر الحيوان، ووزع الهدايا بلا حساب.

وفي صباح اليوم التالي جرد زينب من ملابسها ودخل بها مرات متتالية، فأصابها نزيف حاد نقلت على إثره إلى المستشفى وهي بين

الحياة والموت لكثرة ما فقدته من دمها.

وكرت الشهور، وحملت زينب.
قالت أروى التي قللت من زياراتها لصديقتها في الأشهر الأخيرة:
- كم باقي لك على الولادة؟

ردت زينب وهي تمسح بحنان على بطنها المكور شاعرة بحركة الجنين:
- أظن باقي شهر ونص.

حركت أروى رأسها وكأنه غير مستقر فوق رقبتها، قالت وعيناها تتأملان الجدران المغطاة بقماش صورت عليه غزلان وطواويس وحدائق غناء:
- وما عا تسموه؟
- اتفقت مع عزيز إذا هي بنت نسميها خيريه على اسم أمه، وإذا هو ولد نسميه منير.

ردت أروى متعجبة:
- منير!
- نعم منير، وماله اسم منير؟
- عاد معش عقل! كيف تشتي تسمي ولدك على اسم منير القاتل؟ والا نسيتي ما فعل بالمسكينة ثايره؟
- منير الله يرحمه مات مظلوم، وأنا عندي إحساس إن المجرم الحقيقي عاده حي بيتحرك على راحته ولا أحد منتبه له.

امتقع وجه أروى وقالت هامسة:

- يا زينب..
- مه؟
- عندي سر مش داريه هل أقول لك عليه والا أسكت أحسن؟
- قولي وما تخافيش، ما عاد أخبر أحد.
- أنا..أنا أبسرت في المنام إن به واحد ملثم بيلاحقني من مكان لى مكان وفي الأخير أبسره يذبحني.

اعتدلت زينب في جلستها وظهر عليها الاهتمام والجد البالغ:
- معقول؟ هذا يذكرني بالرازم الخبيث الذي كانت المرحومة ثايره بتحكي لنا عنه، هو نفسه، يا لطيف الطف!
- كنت أظن إن الخطر انتهى بإعدام منير، لكن اللي حصل هو العكس.. الرازم ازداد بعد موته ورجع يجيني ليليه.. أنا خايفه قوي يا زينب، وحاسه إن موتي قرب.

استنكرت زينب اغروراق عيني زائرتها بالدموع وأنبتها قائلة:
- أروى! إلا الضعف والمسكنه.. لا تسمحي للوهم يغلبك ويقهرك.. اشتيكي تكوني قوية وتواصلي حياتك طبيعي جداً.. مفهوم؟

كفكفت أروى دموعها وغالبت قنوطها بابتسامة مغتصبة:
- عندك حق، لازم أقاوم وما أنهزمش من أشياء خيالية.
- أنا عارفه إن موت الحدي أثر في معنوياتك، لكن الدنيا ما انتهتش، عاد العسر تجاهك، وعا يجي يوم تفرحي وتتزوجي وتتهني، وعا يرزقك الله بالذريه الصالحه والصحه وطول العمر.

نهضت أروى وهي تهم بالمغادرة وقد تحسنت قليلاً:

- كلامك صحيح. بالمناسبة.. إنتي ما حصل معك شي من هذا؟
- قصدك الرازم؟
- إيه.
- أبداً.. ويمكن لأن زوجي يشتغل جزار والساطور معلق بطرفه دايماً ما جرؤش الرازم يقرب مني!

ضحكتا وتعانقتا، وكان هذا لقاءهما الأخير.

أعطت أروى حقنة وريد لمريضة بلغت سن اليأس، وأوصتها بتعاطي الدواء في الأوقات المحددة، ورفضت أن تأخذ منها أية إكرامية، وشيعتها إلى الباب وهي تؤمن على دعواتها. رمقت صالة الانتظار فإذا الكراسي خالية من المراجعين، وأحست بمثانتها تحرقها، فنظفت سطح الطاولة من القطن والمخلفات، ثم انسربت إلى دورة المياه.

كان الحمام مصمماً على الطراز العربي، ويتميز بأنه واسع ونظيف ومهوّى، وضوء الشمس ينهمر من نافذة غربية مرتفعة. عرّت نصفها الأسفل، ورفعت عقيرتها بأغنية عاطفية للفنان أحمد فتحي: «صنعانية مرت من الشارع غبش» وقرفصت تقضي حاجتها.

كانت النافذة تطل على زقاق ضيق مقفر مغطى بالزبالة، ولا أحد

يسلكه باستثناء القطط والكلاب والشاب كبش الذي اعتاد زيارته من حين لآخر.

وصدق حدسه، ومكنته أذناه المعقوفتان من التقاط غناء أروى الرخيم، فقرر الاستعانة بكاميرته الفوتوغرافية ليخلد زجاجة عطرها الفانية.

جلب بلكتين ووضعهما تحت النافذة، وأعد الآلة للتصوير، ثم رقى وأطل برأسه محاذراً.. كانت في مواجهته وهي ناكسة رأسها تدندن شاردة الفكر.

والتقط لها صورة، وسمعت أروى صوت تكة غريبة، فرفعت بصرها واكتشفته يتلصص عليها مفتوناً فاغر الفم!

صرخت مفزوعة، ثم أمطرته بوابل من الشتائم المتشابكة غير المفهومة، ثم أتبعت أقوالها بفردة حذاء أصابت الشاب كبش في وجهه، وجعلته يسقط أرضاً وقد أصيب أنفه برعاف غزير لوّث ملابسه، فبدا كمحارب مثخن بالجراح خرج من ميدان القتال قبل بداية المعركة!

كان الضابط سيف في مكتبه بقسم شرطة الحلقوم واضعاً رجلاً على رجل معتزاً بنفسه، وكان كل نصف ساعة يخرج من تحت سطح المكتب ثلاجة الشاي ويسكب لنفسه فنجاناً.

وقبيل نهاية الدوام دلف إليه المساعد عبيد وبيده ورقة:

- يا فندم، معي بلاغ من واحدة اسمها أروى عياش وتشتغل

ممرضة، وبتتهم كبش بأنه كان يتجسس عليها من طاقة الحمام في الوحدة الصحية، وأخذ لها صورة وهي في وضع غير لايق.

أومأ الضابط سيف بيده رافضاً الاطلاع على الورقة، وتمطى ثم قال:

- لا تكنش تصدق كلام النسوان يا عبيد.. مالك؟ اهتم لي بملاحقة السارق اللي انتشروا في هذه الحارة مثل الجدري.. أشتيك تمسك لي سارق واحد على الأقل!

أصيب المساعد عبيد بخيبة الأمل. أدى التحية ثم انصرف وهو يلعن في سره مزاج رئيسه الرائق.

عادت أروى إلى البيت وهي تجرجر أقدامها متعبة، وحين جلست مع أهلها لتناول الغداء، بلعت لقيمات وهي غير راغبة في الأكل، ثم نهضت وقد ألم بها غثيان رهيب.

وأمضت العصر بطوله وهي تفكر هل تخبر والدها بفعلة كبش أم تسكت؟ كانت تخشى ردة فعله العنيفة، وبالأخص أن يتصرف بتهور ويقدم على ارتكاب ما لا تحمد عقباه.

ومن كثرة التفكير أصيبت بصداع شق رأسها نصفين، فربطت حوله عصابة لعل الألم يخف، وما أن حل الظلام حتى ارتمت على فراشها وأسلمت نفسها للرقاد.

وعوى ذئب استوطن الجبل، واحتجب القمر بالغيوم، وخلت الأزقة

من البشر، وأهملت السحالي الحذر وخرجت من جحورها للنزهة. كانت أروى تنام وحدها في حجرة بالطبقة الثالثة، واعتادت منذ حدوث مجزرة الدم بين أبناء عمومتها أن تغلق بابها بالمفتاح لتجلب لنفسها الشعور بالأمان.

سمعت طرقات على الباب، فلم تأبه في البداية، وحاولت الاستغراق في النوم. غطت جسدها كاملاً باللحاف رغبة في حماية أذنيها من الإزعاج. ولكن الطارق ظل يلح دون كلل.

انقلبت على جنبها الآخر، انبطحت على بطنها، وجدت النوم اللذيذ يسيح من بين أجفانها، ودب القلق إليها.. قعدت وتمطت وزعقت محنقة:

- طيب، لحظة.

قامت بتثاقل وسارت وهي تعرج صوب الباب، أدارت المفتاح في الأكرة، وفتحت نصف مغمضة العينين للطارق.

أصابها ذعر شديد حين شاهدت أمامها رجلاً ملثماً يرتدي اللباس الشعبي وظنته على الفور ابن عمها الهارب «الغشي» مرتكب المذبحة البشعة، وحاولت إغلاق الباب في وجهه، لكنه زاحمها بكتفه وتمكن من الدخول.

ارتدت إلى الوراء تنتفض أطرافها من الرعب، وأغلق الرجل الملثم الباب وسارع بدحرجة المفتاح من الفرجة بين الباب والموكيت إلى الجهة الأخرى.

قالت أروى وهي تحاول كسر حاجز الصمت لتكسب الوقت:

- من أنت؟

لم يجاوبها الرجل الملثم، وأخذ يقترب منها ببطء.

تراجعت أروى صوب النافذة وتذكرت أنها نسيتها مفتوحة فحمدت لنفسها هذا الإهمال، قالت وقد استجمعت كل شجاعتها ليبدو صوتها طبيعياً غير مرتعش:
- للمه ما ترد؟ هل أنت خايف اسمع صوتك؟

استل الرجل الملثم جنبيته وأشار عليها أن تخلع ملابسها.. وفهمت أروى إشارته، وفكرت في مجاراته لعلها تتعرف على شخصيته:
- تشتيني أخلع ملابسي؟ تمام، لكن اشتي أعرف أول من أنت؟

لوّح الرجل الملثم بالجنبية غاضباً، فأدركت أروى أنه لا فائدة من فتح حوار معه، فقد بدا مصمماً على تنفيذ ما في رأسه.

خلعت كنزة صوف وألقت بها في وجه الملثم، ثم ارتقت على سياج النافذة وتدلت إلى الأسفل، ورمت بنفسها.

جرى الملثم محاولاً اللحاق بها فلم يفلح، وعرض له أن يقفز خلفها لكنه خاف أن يغامر بالقفز من هذا الارتفاع الكبير فيؤذي جسمه.

تكومت أروى على الأرض تحت نافذة منزلها تصيح من الألم، ونظرت إلى الأعلى فرأت الملثم يتوارى، فحدست أنه سينزل من الدرج ويدركها، وبرغم الرضوض التي أصابتها تحاملت على نفسها وخطت إلى الأمام وهي تعرج وخيط رفيع من الدم يسيل من فمها.

واستطاعت في هدأة الليل أن تميز بسهولة صوت صرير مفصلات باب بيتها، فأيقنت أن الملثم قد هبط إلى الشارع، وأنه الآن يتلفت باحثاً عنها.

أضاء البرق للحظات قصار ثم تبعه قصف الرعد، وهبت ريح قوية كادت تحملها من الأرض، وهجم البرد منتقماً بحبات كبار تفلق الهام وتدمي الجلد، ونما في روحها وهم دمّلي أن السماء ترجمها كما ترجم الزواني، رغم أنها لم تعرف في حياتها رجلاً قط، وانزلقت ووقع ثقل جسدها كله على ساقها السليمة، وعجزت عن الوقوف مرة أخرى.

كفت عن البكاء والمقاومة، وخطر ببالها أن الموت أرحم مما هي فيه من معاناة الخوف، ورأت وهي بين الصحو والغيبوبة حلماً لم يستغرق سوى ثوان محدودة.. رأت نفسها على شاطئ البحر وسط عاصفة رملية عنيفة أعمت عينيها عن الرؤية تقريباً، وأنها كانت تحاول الوصول إلى ماء البحر الرائق المستقر الذي كان هادئاً وعاصفة الرمال لا تصل إليه.. كانت تحاول شق طريقها صوبه، لكن هبات الرمال العاتية كانت تردها في كل مرة على أعقابها خائبة.. كان البحر يدعوها للسباحة والاغتسال بمياهه من الغبار، والتمتع بالهواء النقي الغني بالأوكسجين، والطفو على سطحه الساكن بعيداً عن قرف عواصف البر.

وتنبهت من الحلم وهي تشعر بألم حاد في حنكها، وصعقتها تشنجات عنيفة شديدة الحرقة، وبالت على نفسها، ثم أسلمت الروح.

كان الشارع يعج ببرك المياه المتخلفة من أمطار الأمس، وواحدة منها بالتحديد كانت حمراء بلون الصدأ، وبقربها رقدت جثة مغطاة ببطانية سوداء قذرة.

تحلق الناس حول الميتة، وراحوا يلغطون بشتى التأويلات، وكان بعضها خرافياً، وبعضها يلهج بذكر الغشي، والأقلية تبنت احتمال وجود سفاح متخصص في سفك وهتك دماء وأعراض الفتيات الجميلات.

توافد الصحافيون لتغطية الحدث، والتقطوا صوراً وأخباراً وتصريحات متضاربة سوف تسمح لهم فيما بعد بتوليف قصة مثيرة لا علاقة لها تقريباً بما حصل على أرض الواقع.

حاصرت الشرطة مداخل الحارة، وانتشر العسكر في الشوارع والأزقة، وأخذوا يضايقون المارة ويطلبون منهم إبراز هوياتهم.

كان الضابط سيف الدخيل في موقع الجريمة يصدر أوامره يميناً وشمالاً وهو في قمة الغضب والحقد، ووجهه مخسوف تتوتر عضلاته، وحين وجه إليه أحد الصحافيين سؤالاً مستفزاً فقد السيطرة على أعصابه وتلفظ بألفاظ نابية، ثم أمر جنوده بإبعاد كل حاملي آلات التصوير والتسجيل مسافة كيلومتر!

انشغل المساعد عبيد بتدوين محضر ضبط الواقعة في سجل كبير، واستخدم يده اليسرى لسد منخريه كي لا يشم رائحة الدم الفائحة من البركة.

وأقبلت سيارة الإسعاف التي شقت طريقها بعنت بالغ بين الحشود المتكاثرة الزاحفة من الحارات المجاورة، ونزل منها شرطيان لبسا فوق بذلتهما العسكرية روبين أبيضين ومعهما نقالة. حملا الجثة أولاً، ثم دسا الرأس باستعجال بين الكعبين. وقيل لهما إن الحاج الجالس على الأرض مسنداً ظهره للجدار هو والد القتيلة، فاقتربا منه وطلبا منه ألف ريال، وزعما أنهما دفعا من جيبهما ثمن بترول السيارة التي أرسلت لنقل ابنته إلى المشرحة.. نظر إليهما عياش بصمت برهة، ثم تدحرجت حبات دمع كأنهن عنقود عنب من عينيه المغبشتين، والتوى فمه من ساعتها وحتى مماته.

عاد الضابط سيف إلى قسم شرطة الحلقوم ودماؤه تغلي، لأن هاتفه تلقى اتصالات لوم وتبكيت من قيادات أمنية رفيعة المستوى، وأحس أن القاتل الخفي قد وجه له إهانة شخصية، وأنه يستهزئ به، وجعله

يرتكب غلطة عمره حين ساق متهماً بريئاً إلى ساحة الإعدام.

دخل مكتبه كالثور الهائج وهو يضرب بقبضته كل ما يصادفه في طريقه، ولحق به مساعده عبيد محاولاً التخفيف عنه:

- يا فندم إحنا ما غلطناش..إحنا عملنا بموجب الأدلة اللي كانت معانا.

رفع الضابط سيف ثلاجة الشاي من تحت مكتبه، وأراد أن يسكب لنفسه فنجاناً، لكنه لم يحصل إلا على بقبقة الهواء، فقذفها إلى الجدار بكل قواه، وتنهد مرتاحاً حين تناثرت شظاياها على الأرض. جلسا ودخنا السجائر.

قال الضابط سيف وعيناه تتطلعان إلى السقف:

- جريمة قتل بنفس الأسلوب السابق، والضحية من نفس الحارة.. واحنا قد أعدمنا واحد بالغلط.. فضيحة ! المفروض أقدم استقالتي.

رد المساعد عبيد مخرجاً ورقة من جيب بنطلونه:

- ما بش داعي تستقيل.. أظن إن القاتل معروف.

بحلق الضابط سيف في الورقة المطوية مبهور الأنفاس:

- ما بيها هذه الورقة؟

فرد المساعد عبيد الورقة وعلى شفتيه ابتسامة الظفر:

- فيها بلاغ رسمي عملته المقتولة أروى يوم أمس الظهر.

انتزع الضابط سيف الورقة متلهفاً:

- ذكرته.. هو ضد واحد اسمه على ما أظن تيس، قالت إنه كان يراقبها من طاقة الحمام؟

- اسمه كبش يا فندم.

نهض الضابط سيف وقد انتعشت روحه وزال الخور من ساقيه:

- كبش معزة مش مهم الاسم! المهم إنه يبات الليلة في الحجز قبل ما يقتل واحدة ثالثة.

خرجا من قسم الشرطة وصدراهما يعلوان ويهبطان من فرط الانفعال، وتحركت بمعيتهما مفرزة من العسكر المدججين بالسلاح.

اقتحم الدرك بيت كبش العازب العائش وحده من نافذة المطبخ المفتوحة بعد أن تعبوا من الدق الخفيف والعنيف على الباب، حيث وجدوه نائماً على بطنه كالميت وليس يستر عورته شيء.

تمشى الضابط سيف في أرجاء البيت المظلم رغم أنهم كانوا في عز الظهيرة، ثم عاد إلى حجرة كبش بعد أن ستر العسكر سوءته. وتأمل الملابس المبعثرة على الأرض هنا وهناك دون ترتيب، بعضها متسخ، وبعضها نظيف، وزجاجات الخمر الفارغة المكومة في إحدى الزوايا، وأما الجدار فكان معرضاً للصور، ولفت نظره منظار وكاميرا فوتوغرافية معلقان بمشجب.

وقف المساعد عبيد بقرب كبش ورفسه في ربلة فخذه:

- هيه.. يا خبير قم.

تحرك كبش في مكانه ولم يفتح عينيه، فرفسه المساعد مرة أخرى في خاصرته، فانقلب على ظهره وابتسم وراح يناغي نفسه:
- هاها.. غاغا..غ..

أشار الضابط سيف للعسكر أن يوقظوا كبش، فحملوه وأوقفوه على قدميه، ولكنه عجز عن الوقوف فاضطروا إلى أن يسندوه من كتفيه.

فتح كبش إحدى عينيه بمقدار ضئيل ودندن مبتسماً وكأنه يملك العالم:
- يا مرحبا بش وباهلش وبالجمل ذي رحل بش!

صاح فيه الضابط سيف مرعداً وعيناه تبرقان كالشرر:
- أوقف سوا يا بعكوك.

قرّب المساعد عبيد أنفه من فم كبش ثم قال:
- لا تتعب نفسك معه يا فندم، صورته سكران على النهاية.

واصل كبش الجمجمة بالأغنية الشهيرة للفنان محمد مرشد ناجي وقد أغلق عينه وتاه في دهاليز الثمل.

قال الضابط سيف وهو يصرف بأسنانه غيظاً:
- بزوه لى القسم وعشوه.

نفذ جنديان الأمر، وسحبا كبش كما تسحب البُسط البالية.

انهمك الباقون في التفتيش، وجلب المساعد المنظار إلى رئيسه قائلاً:

- ما يشتري هذا الناظور في المدينة إلا واحد بيعاني من كبت جنسي فظيع!

جرّب الضابط سيف المنظار محدثاً نفسه بأنه تمكن أخيراً من اقتحام وكر شاب وجودي حقيقي، قال وهو يطل من النافذة:

- أظن والله أعلم إن أهل الحارة ما سموه كبش إلا لأنه بيلاحق النسوان.
- وأنا سمعت إنه بيلاحق أي شيء بيمر من تجاهه!
- مه؟ أنت متأكد؟
- يا فندم هذا الولد ما تركش حماره في السوق ما فعل بها، فكيف ما تتوقع منه مصايب ثانية؟

رد الضابط سيف وهو يضع يده على ذقنه مفكراً:

- معنى هذا إن احنا عا نلقى أنواع من الجرايم في شخص واحد!

قضى كبش فترة ما بعد الظهر إلى المغرب في الفلقة، ثم أقام له الجندرمة ـ بعد أن صلوا صلاة العشاء جماعة ـ حفلة ضرب محترمة، وبعد منتصف الليل تم جلبه إلى مكتب الضابط سيف الدخيل.

قال الضابط سيف مخرجاً من تحت مكتبه ثلاجة شاي بيضاء جديدة:

- ما اسمك يا طرطور؟

رد كبش بهدوء وهو يمضغ اللبان:

- طرطور.
- ما هو؟ بتتمسخر؟
- لا، لكن أنت سميتني طرطور فقلت في نفسي كثر خيرك فللمه عاد أدور لي على اسم ثاني.

قال الضابط سيف ونبرة صوته تخشن:

- جني.. لا تلعب معي عا تندم، قل ما اسمك يا بغل؟
- بغل.

كتم المساعد عبيد المكلف بتدوين المحضر قهقهاته فبدأ بطنه يهتز وخداه تنتفخان، فلكزه الضابط سيف محذراً، وقال مهدداً والشرر يتطاير من عينيه:

- صورتك مدبر وتشتيني أرسلك لغرفة الكهربا..
- يا فندم أنت الذي بتسميني فكيف أجرؤ أخالفك وانت ممثل الدولة!

تحرك الضابط سيف في كرسيه بقلق وقد فار دمه:

- لعنة الله على هذه المهنة اللي ابتلاني الله بها.. يا مواطن قل اسمك وخلصنا.
- عبد اللطيف.
- ما هو؟ إحنا بنشحت منك الاسم بالقطارة أو مه؟
- إذا كانت القطارة ما تناسبكش، ممكن نستخدم الملعقه!

أدخل الضابط سيف سبابته في فم كبش وانتزع العلكة ورماها

باستقذار في سلة المهملات، ثم أخرج منديلاً ورقياً ومسح إصبعه:

- للمرة الأخيرة، قل اسمك الكامل؟
- عبد اللطيف مراد المدعوس.
- المدعوس؟ هه ما شاء الله..أسرة عريقة!
- أمثالك كان لهم دور كبير في حصول عائلتي على هذا اللقب!

التفت الضابط سيف إلى مساعده متسائلاً:

- ما قصده؟ ملاحظ إنه دخل في السياسة؟
- رد المساعد عبيد بجفاء:
- لا تجاريه يا فندم، هو بيتهرب من التحقيق.

هز الضابط سيف رأسه موافقاً، ثم علق قائلاً:

- كنت أظنه قليل عقل فإذا هو خطير!

أخرج الضابط سيف من أحد أدراجه صوراً فوتوغرافية وطرحها على سطح المكتب، التقط واحدة منها وغطى نصفها الأسفل بأنامله وأراها لكبش:

- أنت قمت بالتقاط هذه الصور الإباحية للقتيلة أروى قبل يوم واحد من مقتلها؟
- نعم.
- أين؟
- وهي في حمام الوحدَة الصحية.
- هل أنت داري إن التقاط صور إباحية جريمة يعاقب عليها القانون؟

- عارف.
- ولماذا فعلت هذا؟
- حاجة في النفس قضيتها.
- وهل الاغتصاب والقتل من الحاجات اللي في نفسك وقضيتها؟
- لا، أنا أعيش حياتي كيف ما اشتي، لكن لا يمكن أتجاوز حدود حريتي إلى الإضرار بالآخرين.

وضع الضابط سيف الصورة المثيرة للجدل في درج خاص وأقفل عليها، ثم أراه ثلاث صور أخرى:

- هل أنت من التقط هذه الصور للقتيلة ثايره عبدالحق؟

تأمل كبش الصور الثلاث، كانت واحدة منها تظهر صدرها وثدييها، والثانية تبين قفاها من الكتفين وحتى ساقيها، والثالثة تبرز كرتين مغطاتين بالجينز، قال وهو يفرك عينيه:

- نعم.
- واضح إنك كنت تراقب ثايره وترغب فيها؟
- نعم، كانت رحمها الله شابة جميلة وجريئة ومتحررة.
- وانت حاولت تغويها؟
- نعم، لكنها كانت مخلصة قوي لزوجها علي جبران.
- ولأنها رفضت تستسلم لك قمت بقتلها وقضيت حاجتك منها وهي ميتة؟
- يه! وهل كل من رغب في واحدة وما قدرش يوصل لها يقوم يقتلها!

قال الضابط سيف وقد قرب وجهه من وجه كبش وراح ينظر في عينيه مباشرة:

- هل قتلت ثايره؟
- لا.
- لكن علي جبران يتهمك صراحة إنك قتلتها..
- علي جبران ما أحد ياخذ كلامه، الحارة كلها داريه إنه خرف بعد موت ثايره.
- علي جبران بيده إثباتات عليك؟
- ما هي؟ مقصدك الرسايل؟ هذه أشياء تحصل عادي بين الشباب من الجنسين.
- في واحدة من الرسايل هددت ثايره إنك عا تدخل غرفتها وتقضي غرضك منها بالقوة؟
- هذه مبالغات يستخدمها كل عاشق ليوهم حبيبته انه مستعد يعمل أي مغامرة جنونية لأجل يوصل لها.. وطبعاً هذا كذب.
- لكن أنت نفذت تهديدك ووصلت لها!
- هذه تهمة غير صحيحة، أنا أنصحكم تدوروا على القاتل الحقيقي بدل ما تضيعوا وقتكم معي.
- هل تتهم أحد بقتل ثايره؟
- نعم، علي جبران.
- إذا كان علي جبران قتل ثايره زوجته فما مصلحته من قتل أروى؟
- علي جبران تقدم للحاج عياش يشتي يتزوج بنته، لكن أروى رفضته.

التفت الضابط سيف إلى مساعده متسائلاً:

- هل هذا الخبر صحيح يا عبيد؟

رد المساعد عبيد الشاحب الوجه من السهر والإرهاق:
- نعم، وحصل هذا بعد شهرين فقط من موت زوجته.

قال كبش المبتهج في أعماقه بإفلاته من حصار المحقق:
- وكل أهل الحارة دارين إنها رفضته بسبب إنه عاجز، وأظن إنه حقد عليها في نفسه من يومها.

قال الضابط سيف متحيراً من تشابك خيوط القضية وقد أخذت الشكوك تساوره جدياً في النائب الاشتراكي:
- غريب علي جبران هذا.. أنا مش قادر أهضم تصرفاته..للمه يشتي يتزوج؟

قال كبش مدعماً اتهاماته:
- صدقوني علي جبران مصاب بمرض الانفصام في الشخصية.. وتقدروا تعرضوه على دكتور نفساني حتى تتأكدوا من هذا الخبر!

تثاءب المساعد عبيد وترنح رأسه من ثقل النعاس، وفي الصباح استيقظ فزعاً حين وجد نفسه نائماً في المكتب، وقد توسد سجل المحاضر.

ووفى عزيز الجزار بوعده وواظب على إرسال كيلو من اللحم يومياً لأسرة زوجته.

ومن جانبها كانت زينب تستقطع جزءاً من مصروف البيت خلسة لتساعد أمها وأخواتها، فكان أن حدثت المعجزة، وخفف الفقر من عضاته المؤلمة إلى الحد الأدنى.

لكن في مقابل هذا الانتصار الثمين على العوز، رضخت زينب لتحكم عزيز وطلباته المجحفة، وكان أول ما ضحت به هو استقلالها الاقتصادي، إذ قدمت استقالتها من عملها في المدرسة. ثم تخلت عن حلمها في تطوير نفسها عبر دراسة اللغات الأجنبية، وانقطعت صلتها بالمعهد الثقافي البريطاني. وجاءت قاصمة الظهر حين منعها

منعاً باتاً من الاختلاط بجيرانها القدامى في الحارة، وقد أوصد الباب بنفسه في وجه الطالبات الصوماليات والهنديات واليهوديات اللواتي أردن زيارة معلمتهن.

كانت زينب تحدث نفسها أن ارتزاقها بطفل سيعوضها كل ما خسرته، وسيرمم روحها المتداعية.

وقامت من نومها عطشى، فقعدت ومدت يدها إلى قارورة الماء وشربت حتى ارتوت، وأحست بالجنين الذي صار عمره ثمانية أشهر يتحرك في رحمها بقوة وكأنه يتوق للخروج.

كانت غرفة النوم مضاءة بقنديل أحمر شفاف، وزوجها عزيز نائم على جنبه وقد أعطاها ظهره، والهواء راكد حامض غير صحي.

امتدت يد ذات شعر غزير من تحت السرير وقبضت على معصمها بقوة.. صرخت زينب فزعاً وأحست بقلبها ينخلع من مكانه، وراحت اليد المتينة العضلات تسحبها إلى الأسفل، فتشبثت بزوجها النائم الذي بدا أنه لن يستيقظ أبداً مهما حدث.

قاومت زينب بكل قوتها، وحين جازفت بالنظر إلى الأسفل رأت رجلاً ملثماً يرتدي ثوباً رصاصياً ومعطفاً أسود برز نصفه الأعلى من تحت السرير، كان يشدها بكلتا يديه.

ونجح في إسقاطها على الأرض، وأخذ يتوارى تحت السرير وهو يجرها كتمساح أطبق بفكيه على فريسته، وبعد شد وجذب دام دقائق طويلة وهي تصيح وتستغيث، تمكن الملثم من جرجرة نصفها

الأعلى تحت ألواح السرير، ثم ندت عنها حشرجة مقززة، ونزفت دماً كثيراً غليظاً شكّل بحيرة حمراء امتدت حتى الجدار، وظلت قدماها تخبطان وترفسان أمداً غير قصير يدلل على ما عانته في احتضارها من عذاب.

استيقظ عزيز الجزار من نومه وقعد متكدراً، ورأى زوجته نائمة على ظهرها وهي تهمهم بكلمات غير مفهومة، وجبينها يتعرق، وملامح وجهها تتقلص وتتوتر وكأنها تعاني ألماً رهيباً فوق طاقة البشر على الاحتمال.

عرف أنها الآن ترى الكابوس اللعين الذي بات يزورها ليلياً منذ وفاة صديقتها أروى. تأملها برهة ثم أشفق عليها أخيراً وأمسك يدها وهزها قائلاً بصوته الأجش:

- زينب.. قومي.

استيقظت زينب وعلى ملامحها رعب شديد، وخلصت يدها من قبضة عزيز وهي تصرخ معتقدة أنها يد الملثم.

ناولها عزيز قارورة الماء، فعبت منها بلهفة القادم من الصحراء، وبللت عنقها وصدرها، وأعادتها لعزيز فارغة.

قال عزيز شاعراً بالغضب من هذا العدو الذي يضايق أحب الناس إليه وهو عاجز عن مدافعته:

- مه جا لك الرازم مرة ثانية؟

قالت زينب وهي تخبئ كفيها المرتعشين تحت اللحاف:

- ساع العاده.

قال محاولاً تخفيف توترها:
- كيف حال الجنين؟

شردت زينب بفكرها في البعيد، فهزها عزيز:
- ما هو؟ أنا أكلمك.
انتبهت زينب ونظرت إليه خجلة من إهمالها له:
- آسفة، ما قلت؟
- مش مهم.. كيف؟ نرجع نرقد؟
أومأت زينب برأسها موافقة، فعاودا الاسلتقاء، وأغمض عزيز جفنيه. كانت زينب جزعة، فأبقت عينيها مفتوحتين، وراحت تنظر اختلاساً إلى المكان الذي امتدت منه يد الملثم في الكابوس.. قالت وهي تحس بحلقها قد جف مجدداً من الخوف:
- عزيز.
- نعم.
حركت زينب رأسها وكأنه غير مستقر فوق رقبتها:
- أشتي منك خدمه لو سمحت.
- ما هي؟
- أشتيك تبسر تحت السرير.
- للمه؟

قالت وقد بدأ صوتها يهتز مؤذناً بأنها قد تنفجر بالبكاء في أية لحظة:
- إبسر لأجل خاطري يا عزيز.

قعد عزيز وزفر متضايقاً ثم انحنى بجذعه للأسفل ونظر تحتهما.
قالت زينب قلقة متوجسة:

- إبسر وتأكد يا عزيز.
- ما بش شي.
- متأكد؟

تمدد عزيز وأعطاها ظهره:

- بطّلي وهم، ما بش شي.

وغط عزيز كعادته في نوم هني. بينما بقيت زينب ساهرة تغالب النوم، وتصارع مخاوفها، وتحرك رأسها وكأنه غير مستقر فوق رقبتها، وبصرها مثبت على حافة السرير التي جاءت منها يد الملثم في الحلم، وأعصابها مشدودة ومستنفرة إلى حدها الأقصى، وفكرت عدة مرات في إيقاظ زوجها ليؤنسها ويبدد مخاوفها، لكنها كانت تتقي سورات غضبه العنيفة، وتضغط على نفسها لتتحمل وحدها ما نزل بها من بؤس عظيم.

تم استدعاء الصبي عمر إلى قسم شرطة الحلقوم، وحين وصل بدا أنه قد تغير كلياً، فصار يرتدي الثوب الأبيض القصير، ويغطي رأسه بسماطة من قماش أبيض خفيف، وينتعل حذاءً بدل الجزمة، وقد تورد خداه، واختفى الشكل المستطيل لأجزاء جسمه، واكتسبت أطرافه وزوايا هيكله الشكل المدور البض.

أخرج الضابط سيف ثلاجة الشاي من تحت مكتبه وسكب لنفسه فنجاناً:

- ما اسمك؟
- عمر أحمد عبده جبران.
- كم لك ساكن عند علي جبران؟
- ثلاث سنين.

- ما يقرب لك علي جبران؟
- جدي وجده أولاد عم.
- وللمه أنت جالس عنده مش عند أهلك؟
- أبي ميت وإخوتي كلهم أصغر مني وأنا وحدي أشقى عليهم.

تبادل الضابط سيف ومساعده عبيد نظرات خاطفة وأدركوا أن وراء الفتى مأساة عميقة، قال الأول وقد خفف من نبرة صوته الصارمة:
- ما هو عملك؟
- أشتري مقاضي البيت.
- واضح إنه تربطك علاقة خاصة بعلي جبران؟
- هو يعاملني معاملة طيبة قوي.
- هو يحبك؟

احمرّ عمر خجلاً:
- يمكن لأنه محروم من الذريه فيعاملني ساع ابنه.
- أنت عارف إنه عاجز؟
- آه.
- بيقولوا إن العاجز بيعوض عجزه بعمل أشياء ثانيه:؟؟!

اربدّ وجه عمر وأراد أن يعلق ثم آثر الصمت.
قال الضابط سيف بلهجة آمرة قاسية:
- إخلع الثوب.

ذهل عمر من الطلب وجمد كأنه حجر. كرر الضابط سيف زاعقاً:
- نفذ الأمر.

تلكأ عمر وطافت بعينيه دمعة قهر، ثم وقف وفك أزرار الصدر، وعلى استحياء خلع ثوبه وكوّمه على سطح المكتب.

قال الضابط سيف مغتاظاً من المنحى الأنثوي الذي ظهر به عمر:
- إخلع الفانيله الداخليه وبطّل تمثل علينا دور البنت العذرا.

انصاع عمر للأمر وهو يشعر بدوار وجزع من الآتي، ووضع الفانلة على كتفه.

لاحظ الضابط سيف ارتعاش فرائصه، فأدرك أنه محق في ظنه، وسحب الفانلة منه قائلاً:
- ورني ظهرك.

لف عمر وأعطاهم ظهره، فأطلق المساعد عبيد شهقة استنكار، وسرت في بدنه رعشة قشعريرة حين رأى الظهر مشوهاً تملأه الندوب البنفسجية، والخطوط السوداء راسخة تحت الجلد، فأشاح بوجهه وهو يشعر بالاشمئزاز.

قال الضابط سيف متحسساً اللحم المحروق من التعذيب المتواصل:
- من هو الذي فعل بك هكذا؟

صمت عمر واكتفى بالبكاء.

زمجر الضابط سيف بكل ما في حباله الصوتية من عنفوان:
- تكلم؟

قال عمر بصوت لا يكاد يسمع:
- ع.. علي جبران.

رمى الضابط سيف بالثياب لعمر وقال بنبرة هادئة:
- مثل ما توقعت، خذ البس.

ارتدى عمر ثيابه وقد ازداد ارتعاشه، ثم جلس وأنامله تصطرع مع بعضها البعض.

سكب الضابط سيف فنجاناً من الشاي وناوله لعمر، فاستغرب المساعد عبيد من تصرفه ذاك، لأنها مبادرة لم يفعلها لأحد طيلة حياته، ولا معه هو رفيقه الدائم في معظم جلسات التحقيق.

تفكر عمر في التشوهات التي أصابت ظهره، وتذكر أنها أنقذته يوماً ما من محاولة اغتصاب أكيدة.

قال الضابط سيف منشرحاً:
- أشتي أعرف للمه كان علي جبران يعذبك؟
شرب عمر الشاي الدافئ دفعة واحدة، وفكر طويلاً قبل أن يعترف:
- مش أنا وحدي، حتى عمتي ثايره كان بيعذبها.

فوجئ الضابط سيف بالجواب، وقال محاولاً كسب ثقة عمر متخذاً لهجة ودية:
- كيف كان يعذبكم؟ إحكي لي بالتفصيل؟

قال عمر ونظرته تغيم وذاكرته تعود به للوراء:

- كانت عنده عاده عجيبه.. في النهار تبسره طبيعي.. يضحك ويتكلم ويتعامل معنا بلطف ورحمه ومحبه.. لكن في الليل يقتلب واحد ثاني.. كان بين ليله والثانيه ينزل من فوق لى عندي وقد الساعة قريب الفجر، ويصحيني من النوم وبيده حزام البنطلون، وعلى طول أدري إنه سكران، فكنت أحاول أهرب منه، لكنه يكون قد غلق الباب، ويبدأ يشتمني ويمن علي، وبعدها يستلمني ضرب بالحزام على ظهري وانا أصيح وأبكي، وما يفلتني إلا وقدنا أشر دم.

شحب وجه عمر وجف ريقه، وأحس بضباب كثيف يغشى دماغه.
قال الضابط سيف وقد تأثر وتندت عيناه:

- هل تتذكر كيف كان يعذب ثايره؟
- كان يخليها لما قدها راقدة ويقوم يربطها من ايديها ورجليها ويحشي فمها بخرقه، وبعدها يقوم لها ضرب بالحزام لى فجر.. الله يرحمها.

دمعت عينا عمر ومسح بكم ثوبه الدموع النازلة من أنفه أيضاً.
قال الضابط سيف وصوته واهن من الحزن:

- وما هو الذي كان يجبركم تعيشوا معه وهو بيفعل بكم هكذا؟

أطلق الصغير زفرة حرى متقطعة لا يعرفها إلا الكبار ممن أناخت عليهم الدنيا بكلكلها:

- إحنا فقرا وما بش من يشقى علينا، وكلنا كنا مضطرين نصبر

على باطل علي جبران لأجل القرشين اللي بنحصلها منه ونصرفها على أسرنا.

كان عمر يسرد حكايته وهو يبكي، تابع قائلاً:

- الضرب عندي أنا وثايره كان أهون من إن إحنا نبسر أهلنا يشحتوا.

قال الضابط سيف مخاطباً مساعده ومتجنباً النظر إلى عمر كي لا تظهر عليه أعراض التأثر:

- يكفي.. إغلق المحضر يا عبيد.. وادعي الله يرحمنا.

طلبت امرأة ترتدي الستارة الصنعانية بثمانمائة ريال لحماً، فأعمل عزيز الجزار ساطوره في الذبيحة الملعقة بخطاف حديدي، وقطع اللحم وصلاً صغيرة وناولها في كيس للزبونة.

وقفت سيارة شرطة أمام محل الجزارة، ونزل منها الضابط سيف الدخيل ومساعده عبيد، فشعر عزيز بالانقباض، وتشاغل بتقطيع الذبيحة رغم أنه لا زبائن يقفون ببابه.
قال الضابط سيف وهو يتلمس لحم الذبيحة ويشمه:

- كم قد لها هذه العجلة من حين ذبحتها؟

أجاب الجزار عزيز متكلفاً الابتسام:

- عاد أنا ذبحتها اليوم.

قال الضابط سيف وقد دخل الحانوت وراح يفحص السكاكين والسواطير:

- أنت إيش بتذبح غير العجول؟

رد عزيز ويده تبرم شاربه:

- أذبح أبقار، ثيران، كباش، أغنام، وفي النادر جمل والا ناقة.
- وغير هذا؟
- وما عاد به غير هذا؟
- به حمير، كلاب، نسوان!

زوى عزيز ما بين حاجبيه ورد بجفاء:

- ما بش داعي للكلام هذا.. قولوا ما تشتوا وخلصونا؟

قال الضابط سيف متفحصاً الجزار بنظرة ثاقبة:

- جينا نسلمك استدعاء لزوجتك زينب.

قال عزيز مستنكراً:

- للمه؟

قال الضابط سيف بلهجة فظة:

- هذا مش عملك، وقع إنك استلمت الاستدعاء.

أخذ عزيز الورقة من المساعد عبيد ووقع على محضر الاستلام، وقال كمن يرجو:

- للمه ما تستدعوني أنا بدلها؟

ضحك المساعد عبيد، وقال الضابط سيف ملاحظاً تجمهر المارة في نصف دائرة حول المحل:

- أنت بتمزح أو مه؟ احنا نشتي نستجوبها.
- لكن يا فندم هي حبلى في الشهر التاسع وما عاد هي تقدر تتحمل الإجهاد.

تريث الضابط سيف، وأمر العسكر بإبعاد الفضوليين، ثم قال بصوت خفيض:

- هل ذكرت لك زوجتك إن كبش حاول يعتدي عليها العام الماضي؟

أمسك الجزار عزيز بالساطور ولوح به متوعداً:

- كبش ما يجرؤش، ولو فعلها كنت أنا ذبحته بذيه الساطور.
- إذا كنت تحب زوجتك وما تشتيهاش تتعب للقسم تكلم بصراحة معانا وفلت لك من العنتريات..

وضع الجزار عزيز الساطور جانباً ونكس رأسه:

- قبل ما أتزوج زينب بشهرين سمعت إن كبش تعرض لها في الطريق وهي جازعة لى المدرسة، وهددها بسكين وكان يشتيها تسير معه لى بيته، لكن الحاج عياش الله يشفيه أنقذها وانتهت المسألة على خير.
- هل أكدت لك زوجتك بنفسها هذا الخبر؟
- نعم.
- باهر، إذاً بدل ما تجي زوجتك للقسم أنا عاد ارسل لى

عندكم الفندم عبيد في العصر ياخذ أقوالها ويسجلها في محضر رسمي.. اتفقنا؟

فتح عزيز فمه وزفر مرتاحاً:

- اتفقنا، والفندم عبيد يرحب عندنا في البيت في أي وقت يشتي.

وفي العصر ذهب المساعد عبيد إلى بيت عزيز، واضطر للانتظار قرابة الساعة، حتى عادت زينب من مركز العلاج بالقرآن الذي أعيد افتتاحه، وعلم عرَضاً أن الشيخ هلال هو من يتولى معالجتها.

كانت الأسئلة معدة سلفاً من قبل الضابط سيف، لذا لم يستغرق التحقيق أكثر من ساعة ونصف، ودوّن المساعد عبيد أجوبة زينب، ولم يتدخل بطرح أية أسئلة من عنده، فقد كان تواقاً إلى الخلاص من مهمته في أسرع وقت، لما في طبعه من خجل متأصل، ولأن بطنها المنتفخ أثار في نفسه شعوراً بالذنب كونه يستجوب امرأة على وشك الوضع.

وبعد أن وقعت على المحضر، عاد من فوره إلى قسم شرطة الحلقوم، حيث كان الضابط سيف ينتظر قدومه بفارغ الصبر.

تناولا مع العسكر وجبة العشاء المكونة من الكدم والفول، ثم دخلا المكتب وراح المساعد عبيد يتلو أقوال زينب على مسامع رئيسه.

وفي هذه الأثناء وصلت إخبارية عاجلة من وزارة الداخلية تؤكد أن «الغشي» قاتل ابني عمه والمطلوب من الأجهزة الأمنية قد وافته المنية

ظهر اليوم بنوبة قلبية.. وبعد دقائق اتصل مسؤول رفيع المستوى بالضابط سيف وحكى له ضاحكاً أن القاتل العتيد لقي مصرعه خوفاً.. وقال إن شهود عيان كانوا معه في الباص رووا أنه فتح حقيبته الديبلوماسية فقفز منها فأر جعله يشهق من الرعب وأوقف له قلبه وهكذا مات!

ضحك الضابط سيف حتى فحص بقدميه على الأرض، وأعلن النبأ بتفاصيله العجيبة لكل المتواجدين في القسم من عسكر ومحتجزين، ثم تذكر الواجبات الملقاة على عاتقه فتعكر مزاجه، وعاد مرة أخرى إلى مكتبه.

ومضت ساعات طويلة وهما يعيدان قراءة المحاضر وتدوين الملاحظات، وعندما قالت الساعة إنها بنت ثلاث، تمطى المساعد في كرسيه وقد بلغ به الإعياء حداً لم يعهد له مثيلاً من قبل.

أخرج الضابط سيف ثلاجة الشاي من تحت مكتبه وسكب لنفسه فنجاناً ونحّى السجلات جانباً:

- شيء يحير.. إذا اتهمنا علي جبران فمعانا عليه أدلة تورطه لى الرقبه.. وإذا اتهمنا كبش أيضاً نفس الكلام.. وكل واحد منهم يصلح إنه يكون المجرم!

قال المساعد عبيد وهو يقرص خاصرته لكي يطرد النعاس الضاري من أجفانه المنتفخة:

- لكن الأكيد إن القاتل هو واحد فقط، لأن أسلوب القتل في الجريمتين متطابق.

- المصيبة إنه ما بش معانا دليل حاسم على واحد منهم.. أنا دماغي قدها عا تنفجر من كثرة التفكير.

تثاءب المساعد عبيد ولم يعلق، كان يحس بكسل شديد ويتخيل سرير نومه ولحافه ووسادته المنتفخة بالقطن.
تابع الضابط سيف كلامه وقد نهض وراح يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً:

- اللي بيزعجني إن المسؤولين الكبار في الدولة بيضغطوا علي أقدم المجرم للإعدام بسرعة، من أجل تهدئة الرأي العام والصحافة.

قال المساعد عبيد باذلاً مجهوداً جباراً للحفاظ على مرونة عقله وقدرته على الكلام دون عوج:

- يا فندم حتى أهل الحاره قدهم بيكرهونا ويعاملونا معاملة عدوانية، أنا سمعتهم بنفسي يعيرونا بأن احنا عاجزين عن مسك المجرم، وبعضهم تجرأ وطلب مننا نخرج من الحاره!

أسود وجه الضابط سيف من الغيظ وواصل مسيرته البندولية وقد نسي وجود تابعه.

وسقط رأس المساعد عبيد على صدره في إغفاءة دامت ثانيتين، ثم انتبه متحرجاً من أن يكون رئيسه قد لاحظ ذلك.

ضرب الضابط سيف الجدار بقبضته وقد انتفخت أوداجه من الغضب، ونما في داخله قلق مضطرم وهاجس بأن مستقبله الوظيفي قد بات عرضة للضياع.

ثم لمعت في ذهنه فكرة غريبة وقام بتنفيذها على الفور.. جلس إلى مكتبه وأخرج ورقة بيضاء استقطع منها قصاصتين، ثم طلب القلم الأحمر من مساعده الذي ألح عليه الفضول فسأل قائلاً:

- ما بتفعلوا يا فندم؟

قام الضابط سيف بالكتابة على القصاصتين وطواهما:

- ما بش غيرها.. عاد اعمل قرعة بين علي جبران وكبش، واللي تخرج عليه القرعة الله يرحمه!

فتح المساعد عبيد عينيه على اتساعهما وقد تبخر النعاس تماماً:

- لكن هذا غير معقول يا فندم!
- إذا ما تصرفناش هكذا فيمكن يرسلوا ناس غيرنا يتصرفوا أخس من هذا التصرف!
- لكن يا فندم لو انتظرنا كم يوم يمكن نلاقي أدلة دامغة ضد واحد منهم أو نحصّل شاهد مهم يحسم القضية؟

رج الضابط سيف القصاصتين بين كفيه ثم فتحهما وقرّبهما من مساعده:

- ما عاد بش وقت يا عبيد..

تردد المساعد عبيد وتحت إلحاح نظرة رئيسه الصارمة اضطر أن يسحب ورقة ويفتحها..

قال الضابط سيف متلهفاً:

- اقرأ.

قال المساعد عبيد وهو يحس بأمعائه تضطرب:

- كبش!

انبسطت أسارير الضابط سيف الذي خبأ القصاصة الأخرى في أحد الأدراج، واستعاد القصاصة المكتوب عليها «كبش» ولاكها في فمه بتلذذ:

- باهر.. هكذا نكون خلصنا من هذه القضية القذرة للأبد.

استلقى المساعد عبيد على سريره فجراً، لكن عينيه ظلتا مفتوحتين على اتساعهما دون أن يطرف له جفن من الهول.

عقب تلك الاعترافات المثيرة التي أدلى بها الصبي عمر، تقدمت النيابة العامة بطلب رفع الحصانة البرلمانية عن النائب الاشتراكي علي جبران.

وتناقلت وسائل الإعلام القصة وحولتها إلى فضيحة الموسم المدوية، واستغل المحافظون الفرصة للتشنيع على اليساريين، وتشويه سمعتهم، ووصمهم بشتى التهم اللاأخلاقية، وكان فصلاً عصيباً.

انتقل الولد الذي أثار البلبلة من بيت سيده القديم علي جبران إلى مركز الدعوة والإرشاد معقل سيده الجديد الشيخ محمد الدخيل.

حتى الطباخة سعدية هجرت مخدومها، وحملت معها القطة

«عجايب القدرة» ولم تظهر ثانية في ذلك المكان.

وأما الحارس الشيبة «ناجي» الثقيل السمع فقد علم متأخراً بالحكاية، وانتفضت فروة رأسه من الوجل، فغادر من فوره ولم يفكر حتى بحمل صرة ثيابه!

وهكذا تُرك وحيداً، يرقب الموت الزاحف إلى الأشجار التي لن يسقيها أحد.

حبس نفسه في مسكنه، فكان لا يخرج للتزود بالطعام إلا ليلاً، وعلى عينيه نظارة سوداء، وشال أصفر زيتي يغطي رأسه ويحجب جانباً من وجهه كي لا يتعرف إليه المارة.

وفي صباح شتائي زمهرير والساعة لما تبلغ السابعة، سمع صوت سبع رصاصات بوضوح، أعقبها هتاف وتصفيق.. فخمن أن كبشاً قد أعدم.

وساد الصقيع المدينة، ومات المشردون في الحدائق والطرقات من التجمد، وتكاثر القمل في بيوت الفقراء وسمن من مص دمائهم.

رزقت زينب بطفلة سمراء حلوة التقاطيع كأمها، وسماها عزيز خيرية، وسمتها زينب على اسم صديقتها الحميمة «أروى» لكن النساء والأطفال وحتى الرجال فضلوا مداعبة الصغيرة ومناداتها بالاسم الذي اختارته الأم لها، وهكذا غُلب عزيز على أمره، وأقر في النهاية بأنه اسم جميل.

وواجهت الزوجين الجديدين مشكلة «أروى» التي كانت تنام نهاراً وتنتحب ليلاً، وبخاصة عزيز الذي كان يرى في النوم المتصل العميق مفتاح النشاط والنجاح في الحياة.

قال عزيز الممدد على السرير وقد احمرت عيناه من السهر:
- أف! يا زينب سكّتي البنت، راسي قده عا ينفجر.

قالت زينب التي كانت تلف في الغرفة وهي تربت على ظهر المولودة:
- أنا مصدعة أكثر منك ولكن ما أفعل؟ الجهال الرضع هم هكذا في الشهور الثلاثة الأولى.

زعق عزيز ثائراً:
- يا مره ابسري لها حل، أنا بينشتغل في الجزارة ومحتاج أنام تمام لأجل أركز في عملي وما اقطعش أصابعي.

زفرت زينب متضايقة، ووضعت المولودة في المهد، وأخذت تهدهدها:
- أنت والله شغلة أخس من البنت.. اسكت!

فار دم عزيز واحتقن وجهه، وبلغ به الغضب حداً أعجزه عن السباب، فحمل وسادته ولحافه وخرج من الغرفة وذهب لينام في حجرة المعيشة.

أرضعت زينب صغيرتها وسمعتها تتجشأ من الشبع، ثم أغفت على صدرها.

أرقدتها في مهدها وغطتها بإحكام كي لا يضرها شتاء المدينة القارس، ثم ارتمت على السرير غير مصدقة أنها ستنال أخيراً قسطاً من الراحة، ونامت بمجرد أن مس ظهرها المحدب من التعب الملاءة الحريرية القمحية اللون.

وكأن شيئاً مس شفتيها، استيقظت وظنت أن ذبابة فاكهة زرقاء حطت على فمها.. كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً، والهدوء الشامل مخيماً على المدينة، والبرد يضرب بكل قواه حتى أن أناملها أوشكت أن تتجمد حين أخرجتها من تحت اللحاف.

وفيما هي مغمضة عينيها بانتظار هبوب الرقاد، سُحب اللحاف من فوقها، وأطبقت يد سمراء بارزة العضلات غزيرة الشعر على فمها، وفي ثانية أسقطتها اليد الأخرى على الأرض، ورأت رجلاً ملثماً يرتدي الملابس الشعبية ظهر نصفه الأعلى يجرها بكل طاقة عضلاته نحوه، فحاولت الصراخ والعض، واستخدمت يديها ورجليها في المقاومة، ولكن قوة الملثم الهائلة غلبتها، وساقتها كالريشة إلى البقعة المظلمة تحت السرير..

ورأت نفسها تصعد جبلاً هائل الارتفاع، طرقه وعرة خطرة، تحف بها هاويات سحيقة، والسماء تمطر مطراً غزيراً، جعل الأرض زلقة، وطينها رخو تغوص فيه الأقدام، والصقيع يشقق الجلد ويجمد الدم في العروق.. وفي قمة الجبل رأت جامعاً مطلياً بالنورة البيضاء، له قبة خضراء عظيمة ومئذنتان رفيعتان موصولتان بالسماء، فقرّ عزمها على الحلول فيه لتحتمي تحت سقفه من توحش الطبيعة.. وفي منعطف ضيق ظهر أمامها حمار أغبر ملأ العطفة بروثه، فتجاوزته وواصلت صعودها، وما كادت تلتفت إلى الوراء حتى كان الحمار

الغاضب قد رفسها بقوائمه الخلفية وألقى بها إلى قعر الوادي.

وفجأة أحست بألم لا يطاق، وكأن أحداً صدم رأسها بالجدار آلاف المرات في ثوان محدودة مضغوطة وكأنها دهر، ولوهلة حسبت نفسها قارورة زجاج حُطمت بقسوة متناهية.

وكما في الحلم، ظلت قدماها تخبطان وقد التوتا من العذاب في بركة دمها، ثم همدت وغادرت هذا العالم.

ووحدها المولودة «أروى» أدركت ما يحدث، ففتحت فمها بعويل حزين دون توقف حتى آخر أيامها.

تسلل الرجل الملثم من النافذة بهدوء، ونزل إلى الشارع المقفر الغاطس في الظلمة، وسار الهوينى مستمتعاً بسكون الليل الساحر، ومفتوناً حد الجنون ببيوت الحارة المتشابهة في القبح والرداءة وقلة الذوق.

واتجه ناحية قسم شرطة الحلقوم، ودار من خلف المبنى، ثم تسلق نافذة الحمام المفتوحة ودخل منها.. وبدأ بغسل يديه من الدم، ثم غسل النصل المصنوعة من جنزير الدبابات وأعادها تلمع من النظافة.

نزع لثامه، وخلع معطفه وثوبه، ثم وقف على أطراف أصابعه، ومد يده إلى كيس أسود مخبأ فوق السيفون، وأخرج منه بذلته العسكرية وارتداها، ونظر في المرآة متأكداً من قيافته، ودس في الكيس الثوب الرصاصي والمعطف الداكن وجهاز الجنبية وأرجعه إلى مكانه السابق.

خرج من الحمام يتمشى في الممر، فلقيه الحاج زبطان الأمي الذي صافحه بحرارة.

قال الحاج زبطان وهو يتبعه ذليلاً منكس الرأس:

- كيف؟

دخل حجرته، وجلس على كرسيه المريح، ثم أخرج من تحت سطح مكتبه ثلاجة الشاي وسكب لنفسه فنجاناً:

- تمام.

تنفس الحاج زبطان بارتياح واسترخت أطرافه المشدودة، قال وهو يمسد لحيته الشعثاء:

- ومن الذي..

رشف من الشراب الأحمر بمزاج رائق، وأخرج من أحد الأدراج قصاصة ورق، وأراد أن يناولها للحاج زبطان، لكنه تذكر أنه من المزهوين بالأمية، فأدارها في فمه كالعلكة وقال:

- علي جبران.

هز الحاج زبطان رأسه بخشوع ثم قال:

- تأمروني بشي يا فندم؟

بصق بين قدميه فرأى بصاقه مختلطاً بالدم فأدرك أن لثته جريحة:

- نعم.. أشتيك ترشح نفسك في الانتخابات عن دايرة الحلقوم.

حك الحاج زبطان شعره الجعد، وفكر في نفسه أن أهالي الحارة يعرفون هوية مرتكب جرائم القتل ولكنهم لا يتكلمون خوفاً من أن يأتي الدور عليهم.. وقال متردداً:

- ل.. لكن.. أنا ما اصلحش يا فندم أطلع نايب في البرلمان؟؟

وضع قدميه على سطح المكتب وتمطى وهو يشعر بنفسه في أحسن حالاته:

- ولأجل هذا اخترتك!!

خرج ساعة الضحى من قسم الشرطة متبختراً في مشيه جذلان بما أنجز. وتذكر صباه الباكر حين كان مشهوراً في قريته بأنه يسرق كل ما تقع عليه عيناه، وما من بيت من بيوت القرية إلا وقد اكتوى بخفة يده، ثم تآمروا عليه جميعاً وقدموا ضده بلاغاً للأمن المركزي بأنه متهرب من الخدمة الإجبارية، ونجحوا في مسعاهم وتم القبض عليه بعد أيام قلائل فتخلصت القرية من شره.. ولكنه بما أوتي من حذق ومهارة وذكاء وقّاد تمكن من أن يبز زملاءه المجندين في الضبط والربط والطاعة العمياء لأوامر الرؤساء، وأن يترقى في سلك الشرطة محققاً النجاح تلو النجاح حتى آل إلى ما هو عليه من رتبة رفيعة ومنصب جليل، رغم بداياته المتواضعة وعدم حصوله على تأهيل حقيقي من أية أكاديمية للشرطة.

اتجه إلى حراج سوق الحلقوم، وتمشى على مهل بين الحوانيت الصفيحية الصدئة المنتنة، وبحث بدأب وصبر عن حاجته، وبعد عنت شديد عثر على حقيبة جلدية حمراء كبيرة.. فتشها فوجد في الداخل ملصقاً مكتوباً عليه: «ثائرة عبدالحق محمود» بخط يد المرحومة، إذلم يكلف أحد نفسه نزع هذا الملصق لإخفاء هوية المالك الأصلي للحقيبة.. دفع ثمن الحقيبة دون مساومة بدافع هواية جمع تذكارات تخص أولئك الناس الذين تدخل بطريقة فجة في أقدارهم.

الكاتب

وجدي محمد عبده الأهدل.
مواليد ١٩٧٣م محافظة الحديدة ـ اليمن.
بكالوريوس آداب.

حصل على «جائزة العفيف الثقافية» (قصة قصيرة) مناصفة عام ١٩٩٧م، والمركز الأول بمهرجان الشباب العربي التاسع بالإسكندرية «النص المسرحي» عام ١٩٩٨م، وجائزة رئيس الجمهورية للشباب (قصة قصيرة) مناصفة عام ١٩٩٩م.

صدر له:
زهرة العابر، مجموعة قصصية، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ١٩٩٧م.

رطانة الزمن المقماق، مجموعة قصصية، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ١٩٩٨م.

صورة البطال، مجموعة قصصية، دار أزمنة، عمّان، ١٩٩٨.

من أحلام الكتب، قصة طويلة، الأمانة العامة لجوائز رئيس الجمهورية، صنعاء، ١٩٩٩م.

حرب لم يعلم بوقوعها أحد، مجموعة قصصية، مركز عبادي للدراسات والنشر ونادي القصة ـ إلقه، صنعاء، ٢٠٠١م.

قوارب جبلية، رواية، مركز عبادي للدراسات والنشر ونادي القصة، إلقه، صنعاء ٢٠٠٢م.

قوارب جبلية، رواية، طبعة ثانية، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٢.

* نشرت له رواية «**الومضات الأخيرة في سبأ**» على حلقات في صحيفة «الثقافية» عام ٢٠٠٢م.

* نشرت هذه الرواية مسلسلة على حلقات في صحيفة «الثقافية» عام ١٩٩٨م تحت مسمى «إضبارة جمهورية الانتفاخ».

سلسلة
آفاق
عربية

مشى عمر خلفها والدموع تُضَبِّبُ عينيه، ومشاعره تضطرم بالحنق، معتقداً أن كرامته قد أهينت ومرّغت بالتراب، فأقسم على نفسه أن يأكل ثلاثة أضعاف كمية الطعام التى اعتاد تناولها مقلداً قطته السوداء (عجايب القدرة)، وأن ينزوى فى حجرته بالقبو واضعاً رأسه بين قدميه ليتمكن من هضم الطعام فى أسرع وقت ممكن، ظاناً أنه بهذا النظام الغذائى المكثف سيتوصل فى غضون أسابيع أن يغدو رجلاً.

تصميم الغلاف : أحمد اللباد

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

السعر: ٤,٧٥ جنيهاً